غازي عبد الرحمن القصيبي

باي باي لندن..

ومقالات أخرى



العبيكان
Obeikan

"باي باي" لندن!

ومقالات أخرى

غازي بن عبدالرحمن القصيبي

"باي باي" لندن!..

ومقالات أخرى

العبيكان
Obeikan

© مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القصيبي، غازي عبدالرحمن

باي باي لندن./ غازي عبدالرحمن القصيبي. - الرياض، ١٤٢٨هـ

١٠٨ص؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٧-١٩٦-٥٤-٩٩٦٠

١- المقالات العربية - السعودية

٢- القصيبي، غازي عبدالرحمن - مذكرات أ- العنوان

ديوي ٠٨١,٣١ ٤٦٢/ ١٤٢٨

رقم الإيداع: ٤٦٢/ ١٤٢٨

ردمك: ٧-١٩٦-٥٤-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

الناشر

شركة العبيكان للأبحاث والتطوير Obeikan

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٥٦٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

في ذكرى

يوسف بن أحمد الشيراوي

المحتويات

"باي باي".. لندن!(*)

ماذا تستطيع أن تقول عن مدينة قضيت فيها جزءاً من حياتك، يكاد يعادل خُمسها، وشهدت مولد ابنتك، ومولد ثلاثة من أحفادك، وعرفت فيها شواهق السعادة، كما انحدرت فيها إلى وهاد الألم؟ ماذا تستطيع أن تقول عن مدينة عشت فيها طالباً يزاحم الناس في الحافلة لأنه لا يملك أجرة التاكسي، وعشت فيها سفيراً يتنقل في في أفخم السيارات المصفحة؟ ماذا تقول عن مدينة شهدت مخاض رواياتك الأولى، وميلاد عدد من دواوينك وكتبك؟ ماذا تقول عن مدينة تترك فيها حين تغادرها عدداً من أصدق أصدقائك، بالإضافة إلى عدد لا يستهان به من «الآخرين»؟ لا يمكن للوداع أن يكون سهلاً، ولا يمكن لكلمات الوداع أن تكون خالية من العواطف المتناقضة، ولا يمكن لإحساسك أن يكون بريئاً من مزيج غير متناسق من اللهفة إلى البقاء، ومن الشوق إلى الرحيل.

(*) مقالة نشرت في جريدة **الشرق الأوسط** الخميس ٤ شعبان ١٤٢٦ هـ، ١ أكتوبر ٢٠٠٢ العدد (٨٧١٧).

تلك، باختصار شديد، حكايتي مع لندن التي عرفتها طالباً وزائراً وسائحاً ومقيماً، حتى ليخيل إليّ، أحياناً، أنها، بدورها، عرفتني. إلا أن لندن لا تعرف أحداً: لا تحب أحداً ولا تكره أحداً، لا تهشّ للقاء أحد ولا تجزع لفراق أحد. من يلوم لندن التي شهدت ما شهدته مدن العالم مجتمعة إذا فقدت قدرتها على الانفعال؟ لندن التي رأت صراع الجبابرة، ومصارع الملوك، وأنهار الدم والحرائق والطواعين، هل يمكن أن يطرف لها جفن إذا وقع حادث عابر هنا أو هناك؟ لندن التي أنجبت رجالاً صنعوا إمبراطوريات، ورجالاً فككوا إمبراطوريات، هل يمكن أن تذعر إذا ظهرت دولة هنا أو اختفت دولة هناك؟ لندن التي حضنت عقولاً غيّرت مجرى العلم، وبالتالي حوّلت مسار التاريخ، هل تتوقع منها أن ترقص طرباً لاكتشاف علمي، هنا أو هناك؟ لندن، شبيهة بليلى الأسطورية، التي يدعي الجميع وصلها، وهي لا تحب إلا نفسها.

تنظر لندن -ببرود قاتل- إلى سقوط رئيس وزراء قديم ومجيء رئيس وزراء جديد. وتنظر لندن -بجمود مذهل- إلى مظاهرة في شوارعها يتجاوز عدد أفرادها المليون، وكأنها تقع في فلك آخر. تنفجر القنابل المدمرة في قلب لندن، وتسير الحياة سيرتها الطبيعية كأن القنابل مجرّد شموع تضاء على هيكل لندن العتيق. وتزخر لندن بالملل المتصارعة والعقائد المتحاربة والأجناس المتقاتلة،

وهي تنظر -بهدوء- كما ينظر أب كهل حكيم إلى مناوشات أطفاله الحمقى. أي أبله هذا الذي يتوقع من لندن أن تلاحظ فراقه، أو تذكر أيامه، أو تتمنى عودته؟!

ولندن -كإمبراطوريتها الغاربة التي كانت الشمس لا تغرب عنها- واحدة في جموع، وجموع في واحدة. هناك لندن واحدة، عاصمة المملكة المتحدة التي كانت عاصمة الدنيا ذات يوم، وهناك ألف لندن ولندن، لا تكاد واحدة منها تعرف شيئاً عن الأخرى. هناك لندن المشردين الذين يعيشون فوق الأرصفة الباردة على المخدرات القاتلة. وهناك لندن الثرية المترفة المدللة التي يحيط بها سور سميك من الذهب لا يراه سوى المحرومين. وهناك لندن الطلبة، المساكن الرخيصة، والطعام الذي لا يؤكل، والحانات التي لا تغلق أبوابها. وهناك لندن البورصة، حيث تضيع، في ثانية، ثروات ضخمة، وتصنع، في ثانية، ثروات أضخم. وهناك لندن المتاحف، تاريخ البشرية كله منقوش على التحف والحيوانات المتحجرة. وهناك لندن الأحياء المضاءة باللون الأحمر والأجساد الوردية. وهناك لندن الحانية التي تنفق على ساكنيها إلى حد السرف. وهناك لندن القاسية التي تترك مريضاً يموت في انتظار عملية جراحية لن تأتي قبل سنة. من ألف وجه ووجه يتكون وجه لندن الذي يستطيع كل إنسان أن يتعرف عليه بسهولة، ولكن أحداً لا يستطيع أن يقرأ ما وراء الملامح المألوفة.

ولندن تعالج أمورها بطريقتها الخاصة، غير عابئة بما يدور في عالمها القريب أو في العالم البعيد. لا تزال لندن تصر على طقوس تبدو في عيون الآخرين شبيهة بأساطير العجائز. في يوم الخطاب الملكي في البرلمان، يتقدم رجل كهل عابس يرتدي ثياباً كأردية السحرة والكهان في العصور الماضية، ويدق على باب مجلس العموم ثلاث مرات قبل أن يسمح له بالدخول، فيأمر الأعضاء، باسم الملكة، أن يتوجهوا إلى مجلس اللوردات. قبل أن يغادر الأعضاء أماكنهم يرسلون إلى القصر أحد الأعضاء رهينة، خوفاً من أن يحتجز البرلمان الملكة. ولندن هي العاصمة الوحيدة في الدنيا التي يُصّر شرطتها على التصويت، سنة بعد سنة، على رفض حمل السلاح. وفي لندن يستطيع من يشاء دخول أي منزل غير مسكون واحتلاله، وليس للمالك من وسيلة لإخراجه سوى اللجوء إلى القضاء. ولندن هي المدينة الوحيدة التي لا تطلب من أحد فيها، سواء أكان مواطناً أو زائراً، حمل «هوية» أو «أوراق ثبوتية». وفي مكتب الجوازات بلندن تستطيع أن تقول للموظف إن اسمك الإسكندر الأكبر المقدوني، ويسجل الموظف هذا الاسم بلا اعتراض. ورخصة السياقة في لندن، بخلاف الرخص في الغرب والشرق، لا تحمل صورة صاحبها. يخطئ من يتصوّر أن لندن مجرد عاصمة تتعامل مع عواصم أخرى. لندن كوكب مستقل يتعامل مع كوكب الأرض.

إذا نبغ إنسان في لندن عرفت الدنيا كلها بنبوغه، ولكن متى ينبغ أحد في لندن؟ بين آلاف المعارض التي تعج بعشرات الآلاف من اللوحات الفنية الرائعة، كيف يمكن أن تظهر موهبة شابة؟ بين مئات المحاضرات التي تلقى كل ساعة في قلب العاصمة وحدها، من سيلاحظ هذا المحاضر أو ذاك؟ بين مئات الساسة الذين يتدفقون على «هيثرو» كل صباح، من سيلاحظ أن رئيس جمهورية وصل أو أن رئيس وزراء سافر؟ يا لسذاجة الزائر - كائناً من كان - حين يتوقع أن يلقى معاملة خاصة من لندن التي تضن بالمعاملة الخاصة على نفسها.

وماذا عني أنا؟ حين أغادر لندن في وهج النهار الساطع، لا في ظلام الليل كما زعم من زعم، ماذا سأحمل في حقائب ذكرياتي؟ لن أحمل لندن السوّاح: القصور والقلاع والجنود ذوي الريش والثياب العجيبة. ولن أحمل لندن السياسة: البرلمان العتيد والساسة وتعليقات المعلقين. ولن أحمل لندن التجارة: الشركات الكبيرة والعقود الضخمة وحفلات الغداء المملة. ولن أحمل لندن الصحافة: العناوين الصارخة والصحف الرصينة والصحف العارية. ولن أحمل لندن المسارح: الرقعة الصغيرة التي يصارع فيها شكسبير صرعات نيويورك منذ أكثر من قرن. سأترك هذا كله لغيري من الساسة المحترفين وعشاق المال والمولعين بالضرب في البحار والقفار.

سأحمل معي لندن صغيرة، صنعتها من مئة لندن ولندن. لندن تحمل لوناً لا يراه سواي، ورائحة لا يستنشقها غيري، وطعماً لا يذوقه إلا لساني. في لندن هذه، مشهد يارا وهي تولد وسط فوضى عارمة انتابت قسم الولادة في مستشفى عتيق ذات يوم من أيام سبتمبر ١٩٧٠، في لندن هذه صورة زوجين شابين يشتريان نصف سمكة ثم يكتشفان أن السمكة من موديل «سالمون» ويضحكان حين يقضي ثمنها على مصرف أسبوعين كاملين. في لندن هذه، عصافير صغيرة تحط على يدك، وتقبلها، وتأكل منها، تسكن حديقة «سانت جيمس». في لندن هذه، تبتسم العجائز لك في الصباح، وتحييك فتاة المتجر بحرارة، ويستقبلك سائق سيارة التاكسي السوداء بنكاته. وفي لندن هذه، مطاعم دافئة صغيرة تشعر وأنت تدخلها شعور إنسان الكهف وهو يأوي إلى حصن حصين بعد يوم حافل بالجوع والمخاطر. وفي لندن هذه الكثير الكثير من الشعر، والكثير الكثير من الحب، والكثير الكثير من الحزن. وفي لندن هذه يقف سلمان الصغير(*) أكبر من لندن نفسها.

حسناً! أحمل معي لندني الصغيرة، أخفيها بحيث لا يراها أحد، وألتفت إلى لندن الكبيرة، وشفتي العليا جامدة وفقاً لتقاليد الإمبراطورية، وأقول، ببرود إنجليزي تتسلل إليه رغماً عنه وعني

(*) حفيد الكاتب.

جمرةٌ من دفء الشرق: «وداعاً لندن! أعني إلى اللقاء! أعني...».
أمضي واثقاً كل الثقة أن السيدة الأرستقراطية العجوز الوقور لن تسمعني، ولن تقول لي شيئا!

ثقافة الثقافة(*)

أردت لهذا الحديث أن يكون حديث مكاشفة ومصارحة، وكان هذا قراراً عانيت معه، قبل أن أصل إليه. وللمعاناة سبب: لا توجد مكاشفة لا تحرج المكاشِف أو المكَاشَفَ، ولا توجد مصارحةٌ لا تجرح المصارِحَ أو المصَارَح. في المكاشفة أو المصارحة شيء من الألم، وهذا الألم في تصوري، هو الذي يبقى المكاشفة، وما يتفرع عنها من مفاهيم كالشفافية والمسائلة، أحلاماً كثيراً ما تستعصي على التحقيق.

أريد أن أصارحكم، بادئ ذي بدء، أني أصبت بكثير من الخوف عندما قرأت اسم الموضوع الذي طُلب مني أن أتحدث عنه: "التنمية الثقافية ودور المثقف فيها". والحق أقول لكم أني لا اعرف، على وجه التحديد، المقصود بالتنمية الثقافية، وأوشك أن أقول إني لم أعد أعرف،على وجه التحديد، المقصود بالتنمية عموماً

(*) محاضرة في الملتقى الأول للمثقفين السعوديين ، مركز الملك فهد الثقافي، الرياض ١٣ شعبان ١٤٢٥هـ الموافق ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٤م.

وإجــمــالاً. على أن هذا الخطب يهــون عند الخطب الآخـــر: دور المثقف. ينتابني كثير من الحيرة وشيء من القلق كلما دار الحديث عن "دور المثقف" في هذا الشأن أو ذاك. أما الحيرة فمصدرها أني لا أعرف نموذجاً واحداً لمثقف بمواصفات إنسانية راقية، وأهداف مجتمعية عالية، ونزاهة شخصية ضافية بحيث يمكنني أن أقول: "وجدته!. هذا هو المثقف! وهذا هو دوره!". المثقفون الذين أعرفهم، والذين أعرف عنهم، ينتمون إلى نماذج عديدة، منها نموذج يسرّك أن يكون له دور في شؤون مجتمعك، ومنها نموذج تودُّ لو نفيته من مجتمعك نفياً. بين المثقفين تجد الصادق والكاذب،الجبان والشجاع، ذا المبدأ والانتهازي، إلى نهاية القائمة من الصفات، وهي صفات نجدها بين كل أصناف البشر، بدأً بعباقرة التاريخ وانتهاءً بالأميين وأشباه الأميين.

أي دور نستطيع أن نتوقعه من قبيلة المثقفين المليئة بالتناقضات؟ وهل يستقيم الحديث عن دور واحد للمثقف إذا كنا إزاء مثقفيْن: أحدهما همه دفع مجتمعه إلى الأمام والآخر هاجسه جرّ مجتمعه إلى الوراء؟ هذا عن الحيرة، أما القلق فيجيء عندما ننتقل من التأمل النظري إلى جولة سريعة في التاريخ. سوف نجد، بلا جهد، في كل منعطف وكل زاوية، مثقفاً نتمنى لو لم نلتق به، ولو لم يلتق هو التاريخ. ولنا أن نستذكر أن الحجاج بن يوسف كان

مثقفاً بامتياز. يعلّم القرآن الكريم، ويعشق الشعر، ولم يكن يلحن في جد أو هزل. ولنا أن نلحظ أن مثقفاً كبيراً من مثقفي زمانه اصطنع فرناً يضع فيه أعداءه شاءت عدالة السماء أن يموت فيه. وفي أيامنا هذه قال شاعر عراقي موهوب جداً في طاغية العراق شعراً يتفوق في قبحه وبذاءته على الشعر القبيح البذيء الذي يبدأ:

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحد القهارُ

ولست بحاجة إلى أن يذكرني أحد بمثقف استشهادي فضل الموت على تغيير موقفه، ومثقف شجاع فشلت كل الضغوط في تدجينه، ومثقف نبيل لم تفسده السلطة. في المحصلة النهائية، وأمام النماذج المتغايرة للمثقفين، أجد من العسير عليّ أن أتحدث عن دور للمثقف، دور لا يتغير ولا يتبدل، دور معنيّ بهموم القاعدة العريضة من الناس، دور مسكون بقيم الحق والخير والعدالة.

وأستأذنكم قبل أن أغادر مضارب هذه القبيلة أن أشير إلى رأي مثقف مشهور في زملائه المثقفين، هو المفكر الأمريكي أريك هوفر، وهو بالمناسبة مثقف عصامي لم يحمل شهادة من أي نوع. يقول: "هناك نهم مترسخ عند كل أصحاب الكلمة تقريباً يحدد نظرتهم إلى أي نظام قائم؛ ذلك هو نهمهم إلى الاعتراف بهم وإلى إعطائهم مكانة متميزة تختلف عن مكانة سائر البشر". ويضيف:

"رغم ما يزعمه المثقف المحتج باستمرار من أنه بطل المسحوقين والضعفاء فإن الظلامات التي تحركه وتحفزه، هي باستثناءات بسيطة، ظلامات فردية وشخصية". لسنا بحاجه إلى تصديق ما يقوله هوفر الذي قال لنا في مقدمة كتابه الذي نقلت عنه هذه العبارات أنه يتحدث بمنتهى الجرأة؛ لأنه يعرف أنه لا يوجد التزام عند أحد بتصديق ما يقول.

إذن تعذرونني، مشكورين، إذا سمحت لنفسي بتغيير العنوان الذي أرعبني إلى عنوان آخر، قد يبدو غامضاً في البداية، هو "ثقافة الثقافة". ولإزالة الغموض أقول: نحن نتحدث عن "ثقافة السلام" التعبير الذي شاع وذاع بفضل مدير اليونسكو السابق، ونتحدث عن "ثقافة الحوار"، وهو تعبير يشيع ويذيع في مجتمعنا السعودي هذه الأيام بعد المبادرة التاريخية التي أطلقها سمّو ولي العهد بإطلاق مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني. لا ضير، إذن، من ثقافة جديدة نسميها، دون رغبة في التلاعب بالألفاظ، "ثقافة الثقافة"، ونعني بها تلك الروح التي تصادق الثقافة وتشجعها وتعينها.

كيف نوجد ثقافة الثقافة؟ ما أسهل طرح الأسئلة وما أصعب الإجابة عليها. وتزداد الصعوبة عندما يكون من يحاول أن يجيب بطبعه، يرى الظلال الشاحبة كما يرى الألوان الفاقعة، ويدرك

خطر التعميمات، ويعرف أنه يندر أن يكون للحقيقة وجه واحد، ويوقن أن الفكرة الواحدة عندما تدخل ألف رأس قد تدخله بألف رداء. بهذا التحفظ يمكنني أن أوضح المقصود بثقافة الثقافة، إلا أن هناك وقفه ضرورية قبل الاستطراد.

لعلكم لاحظتم أني حاولت، حتى الآن، أن أتملص من الوقوع في مزلق رهيب، وهو تعريف الثقافة، إلا أنه لابد مما ليس منه بد. الثقافة، وما يعادلها في الإنجليزية CULTURE، مفهوم حمّال أوجه، وقد أورد عالم غربي من علماء الأنثروبولوجيا عشرات التعريفات للمفهوم. سأغامر، والحالة هذه، بتعريف صغته ولم أبتكر مضمونه: "الثقافة هي تلك الإبداعات الإنسانية، التي تتجاوز مناهج التعليم الرسمية، والتي تغني فكر الإنسان بالتسامح، وتضاعف اهتماماته العقلية، وتطوّر حسه الجمالي"، هذا تعريف تحكمي بعض الشيء، وكل التعريفات التي أعرفها تحكمية بعض الشيء. ولعلكم تلحظون أن هذا التعريف يُخرج من حرم الثقافة أناساً يعدون أنفسهم صفوة المثقفين، ويُدخل في حرم الثقافة بعض البسطاء الذين لم يتهمهم أحد بالثقافة، وهكذا تفعل التعريفات.

نقارب فكرة "ثقافة الثقافة" عندما نتصور مجتمعين، خياليَّين أو حقيقيَّين، أحدهما يعادي الثقافة، والثاني يصادقها. في المجتمع الأول يلحظ المرأُ أول ما يلحظ رقابة صارمة قاتمة واجمة تحاول

شق الأدمغة عن الأفكار والصدور عن الأحاسيس. هذه الرقابة تستمد شرعيتها من ادعائها أنها الحصن الحصين في وجه الانحرافات الفكرية أو النزعات الانحلالية أو الهجمات الاستعمارية. أو هذه الأمور مجتمعة هذا ما تدعّيه، أما في حقيقة الأمر فهي تستمد شرعيتها من تفوق فكري وعقائدي وأخلاقي مزعوم وهمي يحسب أنه يعرف أكثر من القارئ ما يصلح للقارئ، ويعرف أكثر من الأب ما يجوز لابنه أن يقرأه، ويعرف أكثر من المجتمع كله ما ينفع أو يضر المجتمع كله. هذه الرقابة المتضخمة بنرجسيتها تحجب دون تردد، ديوان شعر لأنه يحتوى على كلمة مثل "قبلة" أو "ضمة" أو كلمة أخرى من عشرات الكلمات التي لم يخل منها ديوان شعر عربي واحد، وتجيز كتاباً يصم نخبة من شعراء الوطن وكتابه بالردة بناء على تأويلات مريضة، أميّة في أحسن الاحتمالات، ومغرضة في أسوأها. ولا يحتاج أحد إلى قليل أو كثير من ذكاء ليستنتج أن الفكر الذي ينمو في ظل رقابة كهذه سوف يكون، في مجمله، من قبيل المنشورات الايديلوجية الساذجة. في هذا المجتمع الذي تغيب عنه ثقافة الثقافة تنمو ثقافات أخرى كالنباتات الشيطانية "ثقافة الانغلاق"، حيث لا قول إلا ما قالت حذام، "وثقافة الاستعلاء" حيث يشرب غيرنا كدراً وطينا، "وثقافة الكراهية" حيث:

الله يعـلم أنا لا نحبككـم   ولا نلومكـم إن لم تحبـونا

والمجتمع عدو الثقافة، بخلاف ما قد يبدو لأول وهلة، لا يؤمن بفكر بعينه، ولا يتبنّى نظاماً سياسياً بذاته. بوسع هذا المجتمع أن يكون ثيوقراطياً أو علمانياً يمينياً أو يسارياً، ويبقى مجتمعاً معادياً للثقافة. إن نظام طالبان لا يكاد يجمعه شيء بنظام صدام حسين، ومع ذلك فالنظامان ينتميان، بجدارة، إلى قائمة أعداء الثقافة.

أما في المجتمع الآخر، حيث تنتشر ثقافة الثقافة، فنجد الصورة مختلفة، في مجملها وتفاصيلها، عن صورة المجتمع الأول. تقتصر الرقابة على حماية الثوابت التي لا يُختلف عليها، وتمارس في حدودها الدنيا. يأخذ الفكر ألف طيف وطيف، لا ينكر طيف على بقية الأطياف حقه في البقاء. يتعامل المجتمع، بلا مركب نقص أو جنون عظمة، مع ثقافة الآخرين، يأخذ بسخاء ويعطي بسخاء، يقبل بمودة ويمنح بمودة، ينتقي بثقة ويرفض بثقة.

لابد لي أن أقول، والألم يعتصرني، إن معظم مجتمعاتنا العربية والإسلامية، تتدرج بدرجات متفاوتة في ظل النموذج الأول، عدو الثقافة. ولعله من المضحك المبكي أن نتذكر أن هذه المجتمعات تنتمي، بصلة النسب البعيد، إلى حضارة كانت، في أوج ازدهارها، المثل العالمي المشرق لثقافة الثقافة. لنتأمل بغداد في عصرها الذهبي، ولنقارن بين ما كان يحدث فيها وما يحدث، الآن، في

عالمنا العربي الإسلامي المعاصر. في بغداد القديمة، كان أبو العتاهية يعيش بقرب أبو نواس دون أن يطالب أحدهما بسفك دم الآخر. وفي بغداد القديمة عاش شاعر عظيم تخصص في هجاء الدولة، وظل، كما كان يقول، يحمل كفنه أربعين سنة دون أن يجد من يكفنه فيه. وفي بغداد القديمة، كان فكر المعتزلة يحاور فكر أهل السنة والجماعة في جدلية صحية سليمة قبل أن تدخل السياسة ميدان الفكر فتسمم كل شيء. وفي بغداد القديمة كان طبيب أمير المؤمنين نصرانياً، وكانت كتب الحكمة يونانية، وكانت أعظم العقول من فارس وبخارى، ولم يكن اليهود يعيشون في "جيتو" مغلق عليهم يتهددهم فيه، بين الحين والحين، خطر الإبادة العنصرية. لا أود أن أضفي على الماضي من البريق ما لم يكن فيه، وهي عادة متأصلة في الكهول والشيوخ، ولا أود أن أنفي وجوه القصور عن الماضي، وهي عادة راسخة في اليائسين من الحاضر. كل ما أود فعله هو أن أزعم أن أي مقارنة بين بغداد القديمة وأي حاضرة عربية أو إسلامية معاصرة لن تكون في صالح الحاضرة المعاصرة، فيما يخص ثقافة الثقافة، على أية حال.

وقبل أن أترك العصور القديمة المزدهرة أذكر أني قرأت في كتاب لم أعد للأسف أذكر اسمه أن الأندلس العربيّة كانت تضم ذات يوم ستين ألف شاعرة. إذا قلصنا هذا العدد وشذبناه وهذبناه

وأزلنا عنه المبالغة التي ظلت لصيقة بالعرب في ازدهارهم وانحدارهم، سوف يخلص لنا عدد كبير لا أعتقد أننا سنجد عدداً قريباً منه في أمة يتجاوز عددها ألف مليون إنسان وإنسانة.

يبادرني السؤال، الآن، قبل أن أواجهه: كيف الوصول إلى مجتمع يحتفي بثقافة الثقافة؟ سبق أن قلت، ولا أملّ التكرار، إني على طرح الأسئلة أقدر مني على تقديم الأجوبة. وأضيف أن الأجوبة التي تطرح حلولاً سهلة نظرياً مقبولة منطقياً تجيء بحلول تتطاير مع أول هبَّة هواء ساخن من عالم الواقع. من الحلول السهلة الشائعة تحميل الدولة المسؤولية عن كل شيء بما في ذلك الثقافة. لقد كنت، وأصارحكم أني لا أزال، لا أعلق الكثير من الآمال على وجود مؤسسة حكومية تعنى بالثقافة. هذا لا يعني أني أعتقد أن وجود هذه المؤسسة، في حد ذاته، ظاهرة سلبية بقدر ما يعني أني أعرف الحدود التي لا يمكن لمؤسسة حكومية، حتى لو كانت مسؤولة عن الثقافة، تجاوزها. لقد قامت الأجهزة المعنية بالثقافة في عالمنا العربي بجهود لا تنكر، ولكنها قامت في الوقت نفسه، وفي الدول الانقلابية على وجه الخصوص، بتكريس عبادة الشخص وفكر الشخص، وعبادة الدولة وفكر الدولة، حتى أصبحت منجزاتها الأخرى بمثابة سكر حلو براق يخفي تحته كعكة مُرة المذاق محشوة بالسموم القاتلة، وهذا الانحراف، بالمناسبة، سلمنا

منه إلى حدٍ كبير في بلادنا هذه في الماضي، ونرجو أن نسلم منه في المستقبل. ومن هنا، فإنني أتردد ألف مّرة قبل أن أجعل الثقافة مسؤولية جهاز يتصرف فيه تصرف المالك في ملكه، جهاز يتعامل مع الثقافة كما تتعامل وزارة النقل مع السكك الحديدية، ووزارة الكهرباء مع محطات التوليد. أوشك أن أقول، ولا أود أن أقول، إن أي جهاز حكومي مسؤول عن الثقافة يؤدي واجبه كاملاً غير منقوص، ويستحق شكر اليوم والغد، إذا هو نجح في فتح الآفاق أمام الثقافة ولم يتحول إلى عقبة كؤود تنتصب في الطريق وتسد الآفاق.

لا أود أن يفهم أحد أني أعارض أن يقوم الجهاز المسؤول عن الثقافة ببناء المسارح ودور السينما والمكتبات ونشر الكتب. كل ما أريده هو ألا تكون المسارح مجالاً لعرض تمثيليات من تأليف الدولة وإخراجها وإنتاجها، وألا تكون دور السينما مخصصة لأفلام يلعب فيها السيد القائد كل الأدوار، وألا يكون في المكتبة مئة ألف كتاب هي في حقيقتها مستنسخة جزئياً أو كلياً من ثلاثة كتب أو أربعة، ولا أريد للكتب التي تنشر أن تحمل عناوين مثل، "اخرج منها يا ملعون"، أو، إن لم تخني الذاكرة، "القرية القرية الأرض الأرض انتحار رائد الفضاء".

إني لا أمقت كتباً بقدر ما أمقت الكتب التي تجيء بلون معين، ككتيب ماو تسي تونج الأحمر الذي يحمل وصفة لقتل الثقافة باسم الثورة الثقافية، وكتاب العقيد الأخضر الذي يحتوى على شطحاته الغرائبية الإسراطينية، والكتب البيضاء التي تصدرها الدول عندما تريد أن تغلف مجموعة من الأكاذيب البشعة بلون يسر الناظرين.

إنني أعتقد أن إيجاد ثقافة الثقافة هي مسؤولية المجتمع كله، وأسارع فأقول: إني لا أعرف كيف يمكن لمجتمع شاء حظه العاثر أن يحرمه ثقافة الثقافة أن يصل إليها. أعرف طائفة من الحلول السهلة نظرياً المقبولة منطقياً ولا أرى ضيراً في استعراضها معكم.

في البيت تبذر البذرة الأولى لثقافة الثقافة. حين يكف الأولاد عن النظر إلى الأبوين باعتبارهما كائنين آليين مبرمجين على رفع سوط العقاب، أو فتح كيس الثواب. وحين ينظرون إلى الأبوين بصفتهما إنسانين بعيدين عن الكمال لا يميزهما عن غيرهما سوى حب الأولاد، ولا يميز هذا الحب عن غيره من ضروب الحب، سوى أنه لا يمارس الاحتكار ولا يعيق نمو من يحب. وسينبري لي من يقول: كيف نصل إلى هذه النتيجة إذا كان الأبوان يتصرفان بالفعل وكأنهما مبرمجان على رفع سوط العقاب أو فتح كيس الثواب؟ أطرق عاجزاً، ويتطاير هذا الحل ذرات هباء.

وبعد البيت يجيء دور المدرسة. تمتد جذور ثقافة الثقافة حين يكف المعلم عن اعتبار طلابه أوعية فارغة يصب فيها المناهج الظاهرة والخفية، ومنهجه الظاهر والخفي، وينظر إلى طلابه باعتبارهم قادرين، رغم صغر سنهم، على حرية الاختيار، وحين يؤمن أن دوره الأساسي هو تدريبهم على حرية الاختيار سيقول لي: من يقول، وكيف تتوقع من معلم وقع هو نفسه في قبضة فكر لا يعرف التسامح أن يعلم طلبته مبادئ التسامح، ويهوى الحل السهل الثاني منهاراً على قواعده.

وبعد البيت والمدرسة يجيء دور المجتمع بأكمله. المجتمع الذي يقمع الخارجين على كل صغيرة وكبيرة من توجيهات ذلك الكائن الهلامي المخيف العجيب الذي نسمّيه التّقاليد والعادات، وقد نضيف إليه الخصوصية، لا يمكن أن يسمح بنشوء ثقافة الثقافة. وأكاد أسمع من يردد: كيف تطلب هذا من مجتمع تعلم من البيوت والمنابر والمدارس أن الخطوط الحمراء تكاد تملأ صفحة الفكر كلها على نحو لا يترك للمباح والجائز سوى هامش يصغر كل يوم؟ ويذهب الحل الثالث من النافذة.

أتراني أود أن أسحبكم معي إلى دوامة من اليأس العدمي الأسود؟ أتراني أود أن أقنعكم أن الوصول إلى ثقافة الثقافة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية مستحل ينعم برفقة الغول والعنقاء

والخل الوفي؟ لا! ما أريد أن أقوله لكم هو أني، بعد تأمل طويل في شؤون الثقافة أحسبه استغرق معظم سنين عمري، وبعد تأمل قصير خلال الأيام المعدودة التي تطلبها إعداد هذا الحديث، وصلت إلى اقتناع راسخ وهو أن الطريق الوحيد إلى ثقافة الثقافة يمر عبر بوابة اسمها الحرية. مع كل خط اجتماعي متعسف أحمر يختفي، تنمو زهرة جديدة من زهور ثقافة الثقافة. مع كل رقيب سلطوي يتقاعد غير مبكي عليه، وبقاء الرقيب في حقبة الإنترنت والعولمة نادرة تضحك الثكلى، يمتد جذر جديد من جذور ثقافة الثقافة. مع كل هامش يتسع للتعبير، تنمو شجرة جديدة من أشجار ثقافة الثقافة.

اسمحوا لي، إذن، أن أنهي حديثي إليكم بحلم أود أن تشاركوني فيه: لنحلم معاً بمجتمعات تؤمن بثقافة الحرية التي تقود، بحتمية لا مناص منها، إلى ثقافة الثقافة. تحدثت قبل قليل، عن ثقافة الثقافة في أوج الحضارة الإسلامية العربيّة، وأقول هنا إني لا أتوقع، ولم أتوقع قط، لنفسي أو لزملائي في هذه الحرفة الكئيبة، مع الاعتذار للاقتصاديين، هامشاً للحرية يتجاوز ذلك الهامش الذي أعطته الحضارة الإسلامية المزدهرة لمثقفيها، والذي أنتج لنا ضمن ما أنتج روائع الجاحظ وأبو الفرج الأصفهاني وابن حزم وابن القيم وابن الجوزي وجلال الدين السيوطي، بالإضافة

إلى نخبة من شعراء فقهاء مبدعين، جمعتُ من أشعارهم مجموعة صغيرة لا يزال الرقيب يتسلى بقراءتها - ولا يفسح لها الطريق.

وعلى ذكر جلال الدين السيوطي أحب أن أورد لكم حكاية لا تكاد تصدق. قام أكاديمي مغمور بتحقيق كتاب "نزهة الجلساء في أشعار النساء" - وسمح لنفسه بحذف أبيات وكلمات من أبيات من شعر نسوي رقيق، وقال إنه فعل ما فعل "رعاية للخط الذي نسير عليه ونرعى الله فيه". إن شأن هذا الرقيب الصغير لا يختلف عن شأن مدرس طبيعة في مدرسة ثانوية يعطي نفسه حق الاعتراض على أينشتاين - وإلا فكيف يسمح أحد لنفسه أن يزايد في الشريعة على عالم من أبرز علماء الشريعة تجاوز عدد مؤلفاته سبعمائة مؤلف؟! إن الرقابة غير الرسمية كثيراً ما تكون أشرس وأقسى وأعنف من الرقابة الرسمية، ذريعتها في ذلك طابعها التطوعي، والفضولي هي الكلمة الأدق.

إن البلابل لا تغرّد وهي سجينة الأقفاص، والمياه لا تعزف سيمفونية الخرير وهي حبيسة في الخزانات (أو قوارير المياه الصحية)، والأغصان لا تشنف الآذان بالحفيف وهي مشدودة إلى الجذوع. هل نستكثر، إذن، على مبدعي الثقافة حقوقاً اقتضت سنن الخالق العظيم، في خليقته، أن تتمتع بها الحيوانات والجمادات؟

حوار حول الحوار(*)

(١)

عندما بدأ الملتقى الأول للحوار الوطني أعماله وضع كثيرون، لا أخجل من الاعتراف أني كنت أحدهم، أيديهم على قلوبهم مشفقين من نتيجة حتمية مأساوية. توقع المتشائمون أن يتحول الكلام إلى سجال، وأن يغدو السجال خصاماً، وأن ينتهي الخصام بفرقة عاصفة. عندما سارت الأمور في غير هذا المسار، في مسار يخالفه تماماً إذا أردنا الدقة، كانت هناك بوادر ارتياح في كل مكان. قاد النجاح الباهر إلى قرار سياسي تاريخي بإنشاء مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني. تبنى المركز ملتقى ثانياً، طرحت فيه قضية الغلوّ، وكان اللقاء ناجحاً بكل المقاييس. ويستعدّ المركز، الآن، لملتقى ثالث يطرح قضيتين تحتلان مكان الصدارة في اهتمامات المجتمع السعودي، هما قضية المرأة وقضية التعليم.

في مجتمع تعود على نبرة واحدة مرتفعة، يسوده صوت مرتفع إقصائي، يعتبر ما تحقق اختراقاً على أكثر من جبهة وانتصاراً في

(*) نشرت في جريدة الوطن السبت ٢٢ محرم ١٤٢٥هـ، الموافق ٢٠٠٤/٣/١٣م.

أكثر من معركة. تعانق أشخاص كان من قبيل المستحيل أن يراهم أحد يتصافحون. أعترف بالتعددية المذهبية أناس كانوا يرون فيها رجساً من عمل الشيطان. تلاقت حول القضايا المطروحة رؤى لم يطف بالبال أن تلتقي على شيء. بعد كل حوار، خرج المتحاورون، وعلى وجوههم الابتسامة، وفي جعبتهم أفكار جديدة لحوارات جديدة.

حسناً. في مجتمعنا قضايا كثيرة كثيرة لا تزال تنتظر دورها في الحوار، وعلى سبيل المثال لا الحصر هناك معضلات البطالة وجنوح الأحداث والتحدي الاقتصادي ومتطلبات المجتمع المدني. وفي مجتمعنا مفكرون ومفكرات لم يساهموا بعد في الملتقيات. وأمام المركز، وهو في شهوره الأولى، أجندة مزدحمة حافلة. والمركز يشرع أبوابه، وآذانه، للمقترحات والآراء من كل قادر على إبداء مقترح أو طرح رأي.

كل هذه الإنجازات الواعدة معرضة لخطر داهم، يجيء من أصدقاء الحوار لا أعدائه، وهو خطر التوقعات الجامحة التي تطالب بالمستحيل. ينظر البعض إلى مركز الحوار كما لو كان القناة الوحيدة، أو الأساسية، لصنع القرار في المملكة. ويتوقع البعض أن تتحول توصيات الحوار، في عملية سحرية، إلى قرارات؛ وأن يلتزم بالقرارات كل فرد، في عملية سحرية أخرى.

الحقيقة أن المركز ليس مكاناً لصنع القرار. للقرار وسائله وقنواته سواء كنا بصدد قرار في مسألة سياسية أو إدارية أو شرعية أو اقتصادية - والمركز بحكم تكوينه وطبيعته ليس وسيلة ولا قناة لأيّ نوع من هذه القرارات. والهدف من الحوار لم يكن ولا ينبغي أن يكون حشد أكبر عدد ممكن من التمنيات، على هيئة توصيات، تمهيداً لإصدارها في شكل تشريعات. الهدف من الحوار هو تعويد مجتمع لم يتعود على لغة التسامح التعددية على الحديث بهذه اللغة. والسبيل هو أن يبدأ الحوار في دائرة صغيرة تحت مظلة المركز، ثم تتسع الدائرة فتشمل وسائل الإعلام، ثم تتسع فتشمل البيوت والمجالس، ثم تتسع فتدخل المدارس والجامعات. باختصار شديد، هدف المركز هو إنشاء ثقافة للحوار تصبح جزءاً لا يتجزأ من حياة المجتمع اليومية، ومن أسلوب تفكيره ومن طرائق تعبيره.

إن الذين يريدون تحويل مركز الحوار إلى مكان لتفريغ القرارات يسيئون، دون قصد، إلى فكرة نبيلة رائدة، ويسهمون، دون أن يدركوا في خنق المشروع الذي يعتقدون أنهم يؤازرونه ويؤيدونه.

(٢)

كنت -ولا أزال- أرى أن الحوار، بصرف النظر عن أطرافه وموضوعه ومنابره، هو دليل صحة وحيوية. وكنت -ولا أزال- أرى أن الحوار هو الخطوة الحقيقة الأولى نحو التسامح، وأن التسامح هو الركيزة الأساسية في بناء مجتمع يقبل التعددية ويحترم الآخر. من هنا كان سروري بالغاً بالردود التى عقّبت على مقالي المنشور في الوطن الغراء والذي يلخّص عنوانه موضوعه "هدف الحوار هو إيجاد ثقافة للحوار"، رغم أني كنت أتمنى لو سلمت الردود من تطرّق إلى شخصي المتواضع، سلباً أو إيجاباً، ليكون الحديث عن الأفكار، والأفكار وحدها.

على أية حال، تجمع الردود على أن هدف مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني يجب أن يتجاوز إنشاء ثقافة للحوار إلى إصدار توصيات ملزمة، وهذه وجهة نظر أقدرها، وأقدر الدوافع النبيلة التي تدفع أصحابها إلى تبنّيها، ولكني أرى أنها تبالغ في أهمية التوصيات والقرارات في الوقت الذي تقلل فيه من أهمية ثقافة الحوار. الأمر يبدو لي مختلفاً: في كل مجال -دون استثناء- أمامنا توصيات وقرارات عديدة لا تنفذ لأسباب كثيرة من

(*) مقالة نشرت في جريدة الوطن يوم السبت ٦ صفر١٤٢٥هـ، الموافق ٢٠٠٤/٣/٢٧م، العدد (١٢٧٥).

أهمها، في، نظري، أن الكثير من هذه التوصيات والقرارات غير قابل للتنفيذ، لأنه يولد في بيئة لم تتعود على ثقافة الحوار.

هناك قرارات متراكمة، عبر السنين، عن ضرورة توسيع آفاق العمل أمام المرأة السعودية بما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية. القرارات موجودة والتنفيذ مُعطّل. والسبب واضح: لا يوجد إجماع على الضوابط التي يجب أن تحكم عمل المرأة - ولا يوجد شبه إجماع. والسبيل إلى الوصول إلى إجماع كهذا أو شبه إجماع لن يتسنى إلا عبر الحوار، وثقافة الحوار.

وهناك قرارات عديدة، عبر السنين، عن ضرورة تطوير المناهج وتعديلها بما لا يتنافى مع الثوابت. ومعضلة الثوابت؟ ألا يمكن أن أعد موضوعاً ما أمراً هامشياً ويعده غيري جوهرياً؟ وهل يمكن الوصول إلى كلمة سواء إلا عن طريق الحوار.

وهناك توصيات عديدة تتحدث عن التعدد المذهبي. هل يمكن أن تتحول هذه التوصية إلى قرار ملزم بصدور مرسوم أو أمر يتبناها؟ لا أظن أن أحداً يجهل أن الخلافات المذهبية، وقد نمت وترعرعت عبر قرون من التعصب، لن يزيلها نظام تصدره هيئة تشريعية. السبيل الواحد لقبول الآخر هو دخول حوار فكري صريح مع الآخر - والمكان الأنسب لحوار كهذا هو مركز الحوار.

وهناك قضايا وطنية شائكة لا يمكن البت فيها "بفرمان" من علٍ. هل يمكن حل مشكلة المهور بقرار من مجلس الوزراء؟ هل يمكن التفرقة بين الاهتمام المشروع بمنطقة ما وبين العنصرية البغيضة عبر توصية من مجلس الشورى؟ هل يمكن فصل التقاليد التي ارتبطت دون وجه حق بالشريعة وأصبحت تعامل كما لو كانت جزءاً منها بأمر سام؟ هل سياقة المرأة للسيارة قضية يمكن أن يبت فيها بسطر واحد تصدره جهة واحدة أم أن الأمر يتطلب الكثير من النقاش؟ هل واجبات القطاع الخاص وحقوقه موضوع اقتناع مبني على بحث أم إلزام يجيء بلا مقدمات؟ هناك عشرات المواضيع المشابهة وجميعها تصرخ حنيناً إلى الحوار الشافي، الحوار الذي لا يمكن أن يدور إذا لم توجد في مجتمعنا ثقافة حوار تنتظم المجتمع كله من أقصاه إلى أقصاه.

أحسبني أريد أن أقول إني أشارك الإخوة الذين تفضلوا بالتعليق على ما كتبت اهتمامهم البالغ بمركز الحوار - وأحسبني أختلف عنهم حول مسألة العربة والحصان التقليدية. هل نضع الحصان أمام العربة أو نضع العربة أمام الحصان؟ هم يرون أن القرارات تجيء قبل ثقافة الحوار وتفوقها أهمية، وأقول إن ثقافة الحوار يجب أن تجرّ القرارات وتقودها، وفوق كل ذي علم عليم.

نحو إستراتيجية موحدة لمكافحة البطالة(*)

لا أحد يؤمن بأهمية الخيال الواسع الجامح كما يؤمن الشعراء الذين أتشرف بالانتماء إلى مملكتهم المسحورة. ولا أحد يعشق الفوضى الخلاقة، التي تشيد وتدمر، كما يعشقها الروائيون، الذين أتلصّص على عوالمهم الغريبة. ولا أحد يصرّ على الفرار من كابوس الواقع الأليم إلى آفاق الحلم الجميل كما يصّر المتفائلون، وأحسبني في معظم أحوالي لا كلّها من المتفائلين. بعد أن أسجل هذا كلّه بلا تردد أتوقف لأقول إن قصائد الشعراء شيء ومشاكل الوطن شيء آخر مختلف تماماً. ولأقول إن الفوضى الخلاقة رائعة كل الروعة في الكتب ولكنها تتحول إلى فاجعة مؤكدة حين تصبح وسيلة للتعامل مع الواقع. ولأقول إن الهرب إلى الحلم تسلية مثيرة بين الحين والحين، ولكنه يتحوّل إلى مأساة دامية عندما يستغرق العمر كلّه.

(*) محاضرة ألقيت أمام جمعية الاقتصاد السعودية بمركز الملك فهد الثقافي بالرياض في ٢١/١١/١٤٢٥هـ، الموافق ٢/١/٢٠٠٥م.

ومن هنا فمن الضروري عندما نتحدث عن مشكلة خطيرة كالبطالة، ولا أحسب أحداً هنا يشك في وجود المشكلة أو خطورتها، أن نتجنب الخيالات، وأن نطرح الفوضى الخلاّقة، وألا نفرط في التفاؤل. عندما نتحدث عن مشكلة خطيرة كالبطالة لا ينبغي أن يكون حديثنا عمّا نتمنى أن يكون، أو ما نتمنى لو لم يكن، ولكن يجب أن يكون حديثاً عما هو أمامنا، وعما يجب علينا فعله للتعامل معه. وفي تصوّري، وفي تصوركم كما أكاد أن أجزم، أن التعامل مع مشاكل الواقع، كائنة ما كانت، لا يمكن أن يتم عبر ردود فعل عشوائية، أو التلويح بمفاتيح سحرية، أو بالشطحات الإدارية الخارقة، أو بالمفرقعات الإعلامية (ولا أظنني بحاجة إلى تذكيركم بأن العبد الضعيف الذي يسعد بالحديث إليكم قد اتهم عبر تاريخه المهني الطويل بهذا كله، أو ببعضه - ولكن تلك قصة أخرى، وحصان من لون مختلف كما يقول التعبير الإنجليزي) - لابدّ في تعاملنا مع مشاكل الواقع من التشخيص الدقيق أولاً، ووضع العلاج الناجع، ثانياً. ومن البديهي أن التشخيص لن ينجح إذا كان هناك ألف طبيب بألف رأي، ومن البديهي أن الفشل في التشخيص يجعل الوصول إلى العلاج وهماً في عالم الأساطير.

أحسب أن ما سبق كلّه من المسلمات التي لا يجب أن نقف عندها طويلاً قبل أن ننطلق إلى لب الموضوع. ولبّ الموضوع،

بوضوح شديد، أن السبب الأول، وأوشك أن أقول السبب الأول والأخير، لمشكلة البطالة بين السعوديين هو هذا الطوفان الهادر الغامر من العمالة المستقدمة. واسمحوا لي بوقفة قصيرة مع إحصائيات قليلة: في سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) كانت العمالة الأجنبية تمثل قرابة ١٥٪ من مجموع القوى العاملة، بينما شكل السعوديون ٨٥٪ من هذه القوى. بعد ثلث قرن انقلبت الصورة رأساً على عقب. خلال السنوات الأربع الأخيرة كان عدد العمال الوافدين كل سنة، أقول كل سنة ولا أقول كل عقد، قرابة المليون. وإحصائيات وزارة العمل تشير إلى أن نسبة السعوديين في مؤسسات القطاع الخاص التي يتجاوز عدد عمالتها ٢٠٪ هي ١٥٪ أما نسبتهم في تلك المؤسسة التي يقل عدد عمالها عن عشرين فهي أقل من ٣٪.

هذه الملايين من العمالة منخفضة التكلفة أدت إلى تمدد مصطنع هائل في العرض أدى إلى انخفاض هائل في التكلفة، جعل سوق العمل في المملكة مختلاً اختلالاً جذرياً. تشير إحصائيات وزارة العمل إلى أن متوسط تكلفة العامل السعودي هو ٣٤٩٥ ريالاً شهرياً، بينما متوسط تكلفة العامل الأجنبي هو ١١٣٣ شهرياً أي أقل من الثلث. هل يمكن لنا أن نتصوّر، مجرد تصوّر، وضعاً يقدم فيه رجل أعمال، أي رجل أعمال في أي محل من العالم، على توظيف عامل مواطن وأمامه عامل أجنبي بثلث التكلفة؟ هل بوسعنا

أن نعـرّض الوطنيـة لهـذا الامتـحـان الصـعب ثم نتوقع أن تـنجح في الامتحان؟

حسناً! إذا سلّمنا أن العامل الأجنبي منخفض التكلفة هو سبب بطالة العـامل السعودي مـرتفع التكلفـة فـإن علينا، أقـول علينا، ولا أقـول لنـا، أن نسلّم بأنه يسـتـحـيل أن نـحل مـشكلة البطالـة بين المواطنين، والسـوق مليء بمـلايين العمـال ذوي التكلفـة المنخـفضـة، وأبواب الاستقدام مفتوحة على مصـراعيها. وإذا سلّمنا بهذه المقولة فـإن علينا، أقـول علينا ولا أقـول لنـا، أن نسلم أن خفض الاسـتـقـدام خفـضـاً حـقـيـقـاً مـلموسـاً هو الخطوة الحـقـيـقـيـة الأولى لمعـالجـة البطالة.

قلب هذا في بيان أصدرته بُعيد تكليفي بأعبـاء وزارة العمل. قلتُ بالحـرف الواحـد: إن وزارة العـمل سـوف تعـمـد على الـفـور إلى إنقـاص سـقف العمـالة الوافـدة بشكل ملمـوس، وعلى نحـو منهـجي متدرج لا يضـر بالتنمية، ويأخـذ حـاجـات القطاع الخاص الحـقـيـقـيـة بعين الاعتـبـار، وترجو الوزارة من الجمـيع أن يحـصـروا طلبـاتهم من العمالة الوافدة في أضيق حد ممكن، حيث إنها لن تصدر تأشيرات العمالة إلا عند وجود حاجة فعلية تقتضي ذلك".

لم يكن مـا قلتـه، وقتـه، صـادراً عن خيـال واسع ولا عن فـوضى خلاّقة ولا عن تفاؤل مـفرط، ولكنه كان يمثل الحـقيـقة لا كمـا أراها

فحسب، ولكن كما جسّدتها قرارات ودراسات وندوات ولقاءات وتوصيات متتابعة عبر السنين. كنت أحسبني وقتها أتحدث عن إجماع وطني شامل كاسح لا يشّذ عنه أحد.

بعد أسابيع قليلة من إصدار البيان، بعد أن تبينت الجديّة في تنفيذ ما جاء فيه، أدركتُ أن ما كنت أتصوره إجماعاً كاملاً كان في الحقيقة إجماعاً ناقصاً. سرعان ما ارتفعت أصوات هنا وهناك تقول إن الاستقدام لا علاقة له من بعيد أو قريب بمشكلة البطالة. وفي لقاء بعد لقاء، نصحني من نصح أن أدع الاستقدام وشأنه، ولولا الحياء لطلب مني الناصحون ألاّ أتدخل فيما لا يعنيني فألقى ما لا يرضيني. وفي مقال بعد مقال كتب الكاتبون والكاتبات، مسلّحين ومسلحات بحرف الألف أو بحرف الدال أو بسلاح الدمار الشامل الألف التي تعقبها الدال، يردّدون النصيحة ذاتها: لا تتدخل في الاستقدام وعالج البطالة كما يروق لك. حسناً! وصلنا إلى مربط الفرس. لا يمكنني أن أدع الاستقدام وشأنه وأن أحارب البطالة في الوقت نفسه. هنا خيار لا خيار فيه: إما إيقاف الطوفان العمّالي الأجنبي وإما تحول تيّار العاطلين إلى طوفان.

أتوجه إليكم، معشر الاقتصاديين، بسؤال يخص مشكلة اقتصادية في جوهرها: هل يمكن أن نترك حبل الاستقدام على الغارب ونتوقع أن تتحسن أوضاع البطالة؟ وأضيف: هل تعرفون

دولة واحدة في العالم كلّه، خارج الخليج، تترك أبواب الاستقدام مفتوحة على مصراعيها؟ وأضيف: هل يوجد في التاريخ كله، في أي مكان من الدنيا كلها، دولة تطفئ النار بالبترول، دولة تتحدث عن البطالة بين مواطنيها وترحّب بملايين الوافدين؟

وعندما أقول هنا مربط الفرس فإنني أقصد، تماماً، ما أقوله. لكل إستراتيجية، كما لكل كائن حي، قلب، وأجزاء رئيسية وأجزاء فرعية - وشأن إستراتيجية مقاومة البطالة في هذا شأن بقية الاستراتيجيات. بوضوح ما بعده وضوح، أقول لكم: إن قلب الإستراتيجية التي تتبناها وزارة العمل لتوظيف السعوديين هي خفض الاستقدام وخفضه على نحو واضح ملموس. وبوضوح ما بعده وضوح، أقول لكم: إن هدف الخفض هو رفع تكلفة العامل الوافد حتى تقترب من تكلفة العامل السعودي. وبوضوح ما بعده وضوح، أقول إنه لو توقف قلب الإستراتيجية عن النبض فلن تستطيع بقية الأجزاء، رئيسية كانت أو فرعية، إلا أن تتخشب شأن الأشياء الميّتة كلها.

ولعلنا نعثر هنا، على جواب السؤال الذي حيّر البرية - أو على أقل تقدير، حير عدداً من كتّاب الأعمدة الصحفية وكاتباتها، لماذا فشلت قرارات السعودة عبر السنين في القضاء على البطالة؟ والجواب بسيط، وأستغرب أن الكثير ممن أحترمهم وأحترم

عقولهم، لا يزالون يبحثون عن الجواب. والجواب البسيط هو، ببساطة متناهية، أن السعودة لم تنجح في القضاء على البطالة لأن الشرط الأساسي لنجاحها الذي هو خفض الاستقدام، لم يتحقق. شأننا مع السعودة شأن من يدعو جائعاً نهماً إلى مائدة حافلة بما لذ وطاب من طعام وشراب ثم ينصحه بعدم الأكل منها. وأرجو أن تسمحوا لي، للمرة الأولى والأخيرة، أن أستشهد ببيتٍ من الشعر، وعذري أن هناك ما يجمع بين الاقتصاد والشعر، ألا وهو الكآبة - فقد سُمي الاقتصاد "العلم الكئيب" ووصف الشاعر الشهير ديلون توماس الشعر بأنها "مهنته الكئيبة" يقول البيت:

ألقاه في اليم مكتوفاً.. وقال له:

إيّاك.. إيّاكَ أن تبتلَّ بالماءِ

ألقينا رجل الأعمال في خضم الاستقدام المتلاطم، ثم حذرناه من التورّط في توظيف الأجانب. أتوقع منكم، معشر الاقتصاديين، جواباً واضحاً وضوح الشمس حول هذه المسألة: مسألة الاستقدام والبطالة. وأرجو ألا أخرج من هنا، وأنا أستذكر قصة الرئيس هاري ترومان، طلب الرئيس من مساعديه أن يبحثوا له عن اقتصادي بيد واحدة وعندما سئل عن السبب قال: كل اقتصادي أستشيره يقول لي "هنا الحل في هذه اليد"، ويمدّ يده - ولكنه

سرعان ما يضيف "ولكن من الأفضل، أيضاً، تجربة هذا الحل في هذه اليد" ويمدّ اليد الأخرى.

وهنا أرجو أن تسمحوا لي أن أتوقف لحظة لأقول: إنني أدرك، ربما أكثر من أي إنسان آخر في المملكة، أن فترة الطفرة أوجدت شريحة كبيرة من المواطنين، أكبر مما يتصوّر أي إنسان آخر في المملكة، من المنتفعين بالاستقدام، هذه الشريحة قد رتبت أمورها وسوّت أوضاعها على أساس أن الوضع القائم، أي الاستقدام بلا حدود أو قيود، سوف يستمر إلى الأبد. وهذه الشريحة سواء كانت تطلب العمالة الوافدة لغرض مشروع، كإدارة مصنع أو مشروع، أو غرض مشبوه، كالتستر والمتاجرة بالبشر، غير مستعدة، على الإطلاق، أن تقتنع بمنطق يتعارض مع منطق مصالحها. وأود أن أذكركم وأذكر نفسي قبلكم، أن لصاحب المصلحة المشروعة الحق في الدفاع عنها، ولكن هذا الحق لا يجب أن يعطى لأصحاب المصالح المشبوهة، كما أحب أن أذكركم وأذكر نفسي قبلكم، أن المصلحة الخاصة، سواء كانت مشروعة أو مشبوهة، لا ينبغي أن تختلط في أذهان صانعي القرار بالمصلحة العامة. إن وجود مصالح خاصة شيء مقبول، إلا أن وضعها فوق مصالح الوطن العليا أمر مرفوض. إن كثيراً من النقاش الدائر الآن، ولا أقول كله، هو حديث مصالح خاصة تحاول أن تتكلم باسم

المصلحة العامة. ولكي يثمر النقاش فلابد من تفرقة واضحة حاسمة بين مصلحة خاصة، متنكرة في زيّ غير زيّها، وبين مصلحة عامة حقيقية. قال مسؤول أمريكي سابق جملة احتفظ بها التاريخ ضمن السخافات المضحكة هي: "كل ما يصلح لجنرال موتورز يصلح للولايات المتحدة". ولا أود أن يسجل التاريخ السعودي جملة مماثلة تقول: "كل ما يصلح لعشاق التأشيرات يصلح للمملكة".

قلت: إن خفض الاستقدام بهدف رفع تكلفة العامل الوافد هو قلب الإستراتيجية، ويمكنني، الآن، أن أعرّج على بقية أجزاء الإستراتيجية. مع خفض الاستقدام، ورفع تكلفة الوافد، يجب أن يكون هناك تدريب فعّال للسعوديين، تدريب تقوم به الدولة ويقوم به القطاع الخاص، ويتمشى مع متطلبات السوق. ومع خفض الاستقدام ورفع تكلفة العامل الوافد، لا بد أن تشهد البلاد نمواً اقتصادياً حقيقياً يخلق وظائف جديدة للقادمين السعوديين الجدد إلى سوق العمل كل عام. ومع خفض الاستقدام ورفع تكلفة العامل الوافد، لابد أن نعيد إلى الشباب السعودي ثقافة العمل التي تعرضت لأزمة حقيقية خلال الطفرة وبعدها. ومع خفض الاستقدام ورفع تكلفة العامل الوافد لابد من إيجاد بيئة العمل المناسبة للعامل السعودي، بدءاً بالراتب المناسب وانتهاء بالأمان الوظيفي.

هذه أجزاء مهمة وأساسية في الإستراتيجية، ولكنني أحذركم من الاعتقاد أنها يمكن أن تنجح بدون قلب الإستراتيجية. حتى عندما يصل الشاب السعودي إلى أعلى مراحل التدريب فإننا سنجد عاملاً وافداً بالتدريب نفسه وبثلث التكلفة. وحتى عندما ينتج النمو الاقتصادي مئات الآلاف من الفرص فإنها ستذهب إلى العمالة الوافدة كما حدث لدينا في المملكة، (ولعل هذا هو المكان المناسب لأقول إن على من يريد الحقائق والأمثلة والأرقام عن هذه النقطة أو غيرها من النقاط الواردة في الحديث أن يرجع إلى كتاب الزميل الدكتور عبد الواحد الحميد "السعودة أو الطوفان"، وقد سمحت لنفسي بالتصرف في الكتاب تصرف المالك في ملكه آخذاً بالمقولة الوزارية المأثورة "الوكيل وماله لوزيره"). وحتى عندما نوجد ثقافة العمل عند كل شاب سعودي فإننا لن نستطيع، ولا ينبغي أن نحاول، أن نخضعه لشروط العمل المجحفة، وهذا حديث طويل مرير ليس هذا مكانه. أما عن بيئة العمل المناسب للعامل السعودي فمن المحال توفيرها والمكان يكتظ برؤساء وافدين يرون في وجود العامل السعودي سبباً لانتهاء وجودهم، ويتصرفون على هذا الأساس.

على أنه إذا كان قلب المشكلة يتطلب الإجماع حوله، فالتفاصيل تقبل النقاش، بل وتتطلب النقاش. لنا أن نتساءل هل يكفي خفض

الاستقدام لرفع تكلفة العامل الوافد، أم لابد من رفع رسوم الاستقدام؟ وفي هذا المجال أود أن أشير إلى المشروع الجريء الذي طرحه سمو ولي عهد البحرين مؤخراً لإصلاح سوق العمل، ويقضي بفرض رسوم تعادل ٢٥٠٠ ريال على كل عامل وافد شهريا، أقول شهرياً ولا أقول سنوياً، ومن الواضح أن هذا المشروع هو نذير الأشياء المقبلة في الخليج، وهو مشروع يستهدف الأخذ بمزايا الحد الأدنى للأجور وتجنب سلبياته. ولنا أن نتساءل عن وضع العمال الوافدين الذين لا يمكن أن يحل محلهم سعوديون وكيف يرشد استقدامهم. وينبغي لنا البحث عن الوسيلة الملائمة العادلة لحصول المواطنين على حاجتهم من العمالة المنزلية، مستذكرين أن ٦٠ بليون ريال تحول سنوياً من بلادنا إلى بلاد العمال الوافدين.

كما أنه ليس لنا أن نتطلب الإجماع حول أجزاء الإستراتيجية التي تتجاوز القلب. لنا أن نبحث مرة وألف مرة عن أساليب لتوزيع عبء التدريب بين الدولة والقطاع الخاص، ولنا أن نتفق ونختلف حول أفضل السبل لإيجاد ثقافة العمل وترسيخها. ولنا أن نبحث ما يمكن وما لا يمكن أن نعمله للوصول إلى بيئة العمل المناسبة للعامل السعودي. ولنا أن نتساءل عن جدوى المشاريع الصغيرة التي يولد منها قرابة ٢٠٠,٠٠٠ مؤسسة سنوياً بتراخيص بلدية، بالإضافة إلى ٢٠,٠٠٠ بسجلات تجارية، وهي مشاريع تعتمد كلها

على الاستقدام. هل من حق هذه المشاريع أن تزحم شوارعنا بمئات الآلاف من الدكاكين الصغيرة المكررة وأن تزحم ميادينا بعمالتها المستوردة؟ لم أر فيما رأيت من مدن العالم مدناً تزخر شوارعها بهذا البحر المتلاطم من الورش والحلاقين والطباخين والبقالات الصغيرة ومحلات الساندوتش والصيدليات كما أرى كل يوم في شوارعنا. ولكم، معشر الاقتصاديين، أن تخبروا الرأي العام عن القيمة المضافة، إن كانت هناك قيمة مضافة، التي يستفيدها الاقتصاد الوطني من هذه الدكاكين التي تنمو كل لحظة كالأعشاب الوحشية ويعتمد استمرارها على التستر أو على قبول العاملين فيها بأجور زهيدة والعيش في ظروف تعرفون كلكم مدى قسوتها.

أحسبني أوضحت، بما فيه الكفاية، أن الإجماع مطلوب وضروري حين يتعلق الأمر بقلب الإستراتيجية، ولكنه نافع وغير ضروري حين يتعلق الأمر بالأجزاء والتفاصيل. بقيت كلمة كان يجب أن أبدأ بها، وهي أنني لم أجيء إليكم لكي أحاضر بل لكي أستمع، ولم أجيء لأعلّمكم بل لكي أتعلّم منكم، وأنا أتطلع، بشغف وصدر رحب، إلى ما سأسمعه منكم الليلة - وأرجو أن أسمع من الآراء أكثر مما أسمع من الأسئلة. كما أنني أتطلع إلى قيام جمعيتكم -مشكورة- بطبع ما يدور هنا الليلة ونشره في كتاب يبقى بعد أن تزول الأصداء وينفضَّ السامر.

مدرسون في حياتي(*)

لم أر من المناسب، وأنا لم أدرس التربية دراسة منهجية أو دراسة هواة، أن أحاضركم عن التربية. ولم أجد من الملائم، وكل الناس هذه الأيام يعلّمون المعلّم كيف يعلم، أن أنصب منبراً جديداً للوعظ والإرشاد. بدلاً من المحاضرة أو الوعظ، رأيت أن أشرككم في ذكريات عن مدرسين كان لهم أثر بارز في حياتي، أذكرهم إلى أن أموت بالشكر والتقدير. إلا أن الحديث لا يمكن أن يكتمل دون التطرق إلى مدرسين كان لهم أثر سلبي مدمّر، أذكرهم فأدعو الله أن يغفر لهم ما فعلوه بنفسيتي، ويغفر لي إن كنت شاركت، دون أن أعلم، في تفجير ونزاعات عدوانية كانت هاجعة في أعماقهم. أن الدقة التاريخية تتطلب إن أذكر الأسماء والجنسيات إلا أنني أضرب صفحاً عن الدقة التاريخية في هذا السياق. أنا لا أكتب لكم تاريخاً ولكني أقلّب معكم صفحات من دفتر الذكريات.

(*) محاضرة في اللقاء الثاني عشر لقادة العمل التربوي بمكة المكرمة، ٢٥ محرم ١٤٢٥هـ، ١٦ مارس ٢٠٠٤م.

كـان المدرّس الأول الذي ترك تأثيـراً بالغـاً في حيـاتي مدرسـاً شـامـلاً، وأعنـي هذه الصـفـة حـرفيـاً. كـان يدرس اللغـة العـربيـة، ويدرس التـاريخ، ويدرس التـربيـة البـدنيـة، ويدرّس الأنـاشـيـد، وربما درَّس الحساب، في حالات الضرورة. عندما ظهر في حياتي، لأول مرة، كنت في المدرسـة الابتدائيـة، في الثامنة أو التـاسعة من العـمر. لم يكن أستـاذي يحمل شهادة جامعية، الحق أنني أعتقد أنه لم يكن يحمل شهادة من أي نوع. في تلك الأيام الغـابرة لم يكن المدرّسُـون يوزنون في لجان الخدمة المدنية، ولم يكونوا يصنفون حسب الأوراق التي يحملونهـا. كـان أستـاذي عـاشـقـاً حقيـقيـاً من عـشّـاق الأدب، وتسـرب عشقه إلى التمثيل، هوايته الأولى. كان ماهراً في اقتبـاس المسـرحيـات، بارعـاً في إخـراجـهـا، خـبيـراً في اكتـشـاف المواهب المسـرحية الصـغيـرة وتنميـتها. كان يدرّسنا، ضـمن مـا يدرّس، مـادة اسـمـها القـصص، خـصصـت لهـا حـصـة واحـدة في الأسـبـوع. خـلال هذه الحصّـة كان الأسـتاذ يروي لنا قصة من اختيـاره - وكان مـجال الاختيـار واسـعـاً لا تحـدّه حـدود. قـد تكون القـصـة رائعـة من روائع التـراث العـربي، وقـد تكون قـصة كـلاسيـكية من الأدب الإنجليـزي أو الفـرنسي أو الروسـي، وكـان أسـتـاذنا يروي القـصـة وكـأنه هـو مؤلفـهـا وبطلهـا، وكنا نسـتمع إليـه في نشوة مـا بعدهـا نشوة، نشـوة لا تنقطع إلا بصليل الجـرس الذي كنـا نتـمنـى، في هذه الحـصـة وحـدهـا، لو أصيب بالشلل.

وفي آخر العام كانت هناك حفلة كانت، في حقيقة الأمر، مهرجاناً ثقافياً صغيراً. بالإضافة إلى عدد من المسرحيات، كانت هناك الخطابات والأناشيد والقصائد. عندما أعود بذاكرتي إلى تلك الفترة أستغرب كيف تمكّن مدرّس واحد، مع مجموعة من صغار الطلبة، من تقديم حفل ثقافي منوّع يستغرق عدة ساعات. أعتقد أن شيئاً من هذا لو حدث اليوم لتطلب الأمر لجنة بعد لجنة بعد لجنة، بالإضافة إلى استئذان بعد استئذان، بالإضافة إلى اعتمادات مالية، ومجموعة كبيرة تعمل خارج وقت الدوام.

لقيت هذا الأستاذ في مرحلة حاسمة من عمري بدأ فيها هيامي بالقراءة وبالكتابة. لم أكن أيامها قد بدأت كتابة الشعر ولكني بدأت في تذوّقه وحفظه. أعتقد أن ظهور الأستاذ في حياتي، وقتها، يحمل مفاتيح سحرية تقود إلى عالم القصة وإلى عالم المسرح، كان مصادفة رائعة دفعت الصبي الخجول الذي كان يقف واجفاً متردداً على أبواب مملكة الأدب دفعة قوية، تركته في أعماق المملكة، حيث بقي منذ تلك اللحظة، ولم يخرج.

وكان المدّرس الثاني الذي ترك بصمات لا تنسى في حياتي مدرسّاً للرسم. من الضروري أن أسارع فأقول إن موهبتي في الرسم منذ بدأت "أشخبط" على الورق، في الرابعة أو نحوها، إلى هذه اللحظة موهبة تكاد تكون معدومة. كانت مادة الرسم، أيامها،

مادة رئيسية تحسب ضمن مواد النجاح والرسوب. كان معدلي المنخفض في هذا المادة سبباً رئيسياً في عدم تمكني من الوصول إلى المركز الأول في الفصل. ولعلّ المشرفين على المناهج، وقتها، أدركوا أنه ليس من العدل أن يرسب طالب بسبب افتقاره إلى موهبة لا يد له في الافتقار إليها فرأوا أن تكون نسبة النجاح أربع درجات من عشرين درجة، وهذا الحد الأدنى كان بالنسبة لي، في معظم الحالات، الحدّ الأقصى.

درَّسني هذا الأستاذ، وكان فناناً تشكيلياً معروفاً، سنة واحدة فقط. خلال هذه السنة نجح في أن يزرع في نفسي الثقة التى كنت قد فقدتها في قدرتي على الرسم. كان يقول لطلاّب في العاشرة أو نحوها، إنه لا يريد منهم أن "يرسموا" ما يرونه أمامهم، ولكن يريد منهم أن "يعبروا" عما يثيره هذا الشيء في نفوسهم. كان يقول إن فن الرسم لا علاقة له، من قريب أو بعيد، بالتصوير وعدسات الكاميرا، ولكنه وثيق الصلة بالمشاعر والأحاسيس. يا الله! كم بدت هذه المفاهيم تقدمية ثورية أيامها، وأحسبها لا تزال تقدمية ثورية في هذه الأيام.

بفرحة من انطلق من قيد ثقيل، انطلقت في دروس الرسم "أعبِّر" عما يجيش في نفسي. كانت النتائج أبعد ما تكون عن التقليدية، وكان الأستاذ سعيداً بها كل السعادة. كنتُ، أيامها، أوشك

أن أبدأ رحلتي مع الشعر. ووجدت في الرسم قناة للتعبير عن المشاعر التي لم أبدأ التعبير عنها شعراً. أحسبني، في معادلة تختلف عن معادلة نزار قباني الشهيرة، الرسم بالكلمات، كنت أكتب الشعر بالفرشاة، في تلك السنة قفزت درجاتي في مادة الرسم على نحو يعادل قفزات الثقة العائدة إلى نفسي. إلا أن ذلك العهد السعيد لم يدم. انتقلت في السنة التالية إلى المدرسة الثانوية، أيامها لم تكن هناك مرحلة إعدادية، حيث التقيت بمدرس جديد قتل نزعة الفن التشكيلي في أعماقي، ببراعة عالية ومهارة راقية، وقتها، وإلى الأبد. وإلى سفّاح الألوان هذا لي عودة بعد قليل.

وهناك مدرس ثالث أعزو إليه حُبّاً لم ينقطع قط، هو حب التاريخ وكتب التاريخ. على خلاف الطريقة التي ألفناها، آنذاك، وأحسبها لا تزال مألوفة لدى الطلبة في أيامنا هذه، وهي حفظ التواريخ المقترنة بأسماء الخلفاء والمواقع الحربية، جاء هذا المدرّس بطريقة جديدة. كان حريصاً على أن يشرح لنا التاريخ باعتباره مسار حضارات، لا سرد وقائع. لم يستخدم أستاذنا هذه الألفاظ وقتها، ولو استخدمها لما فهمها أحد، ولكننا كنا نشعر، بطريقة عفوية، أن مادة التاريخ اكتسبت طعماً شائقاً جديداً لم نتذوقه من قبل.

في تلك السن المبكرة، اكتشفت الحضارة الفرعونية وخصائصها، والحضارة اليونانية وأسسها، والحضارة الرومانية

وسماتها. لا أذكر الآن هل تضمن المنهج كل هذا أم أن أستاذنا كان يخرج عن النصّ، ولكني أذكر أنه استطاع، بالكلام تارة وبالرسوم تارة، أن ينقلنا إلى تاريخ مثير كالأساطير، رائع كالروايات. أحار الآن كيف استطاع مدرس في مدرسة ابتدائية اتباع هذا الأسلوب المبتكر في تدريس التاريخ، ولا تزيدني الحيرة إلا إعجاباً.

اسمحوا لي، هنا، أن أستطرد فأقول إن العلة في كتابة تاريخنا وتدريسه هي التركيز المفرط على أشخاص بذواتهم، وأحداث بعينها. إن التاريخ رصد للملحمة الإنسانية الكبرى، وهي ملحمة لها ألف وجه، ويصب فيها ألف رافد، واختزالها في ما حدث للخلفاء والسلاطين، أو ما حدث في المعارك العسكرية، تسطيح قاتل. إننا لا نحتاج إلى أعادة كتابة التاريخ، كما يقال لنا بين الحين والحين، ولكننا بحاجة إلى استكمال ما لا يعد ولا يحصى من التفاصيل وتحليلها بطريقة منهجية. بدون النظر إلى التاريخ كمنظومة كاملة تشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع سوف نبقى أسرى المنهج التقليدي: "ثم جاءت السنة الفلانية وفيها مات فلان وانتصر فلان".

أقفز، الآن، من المدرسة الابتدائية إلى سنة التوجيهية التى كنت أدرس خلالها في مصر الحبيبة الشقيقة. كنت في السابعة عشرة أتأبط دفتراً شعرياً لا يقل عدد قصائده الموزونة عن ثلاثين

قصيدة، بعضها نشر في صحف محلية. إذا كانت بدايتي الأولى مع الأدب قد لقيت الرعاية التي مكنتها من البقاء، كما أوضحت قبل قليل، فإن شجيرة الموهبة، في سن المراهقة، لقيت الرعاية التى مكنتها من النمو والازدهار. كان مدرّس اللغة العربية قارئاً موسوعياً، وكان اطلاعه على آداب اللغة العربية يدعو إلى الدهشة. سرّ الأستاذ بطالبه الموهوب، وسرعان ما نشأت بين الاثنين علاقة تشبه علاقة الابن بأبيه، يستمد الطالب/الابن منها الكثير من الثقة بالنفس والاعتزاز بالموهبة، ويستمد المدرس/ الأب منها الكثير من السرور المشوب بالفخر.

كنت، منذ أول سنة في المدرسة الابتدائية، أحصل على درجات في اللغة العربية تقترب من الدرجة الكبرى، ولم تصل، قط، إليها. كان السبب هو أن مدرسي اللغة العربية الذين لم يضنوا بالدرجة النهائية في "القواعد" أو "النصوص" وكانت أيامها تسمى "المحفوظات" كانو يضنون بها في "الإنشاء"، التي تحول اسمها في وقت لاحق إلى "التعبير". أذكر أن نقاشاً طريفاً كان يدور بيني وبين مدرّسي اللغة العربية في المدرسة الثانوية. كنت أسأل: "لماذا لا أحصل على الدرجة النهائية في "الإنشاء"؟". وكان المدرس، عادة، يقول: "إذا حصلت أنت على الدرجة النهائية، فماذا سنعطي طه حسين والعقاد؟ "وكنت أرد": ولكن طه حسين والعقاد ليسا طالبيْن

معنا - ولا يجوز أن نقارن بهما". لم يكن هذا الرد، بطبيعة الحال، يعجب المدرّسين الذين كانوا، فيما أتصورّ، يعزونه إلى ثقة مفرطة بالنفس، تغتفر للمراهقين.

وكان هناك جدل آخر دائم بيني وبين مدرّسي اللغة العربية. كانوا، بلا استثناء تقريباً، يصرون على أن قراءة كتب بعينها، لمؤلفين معينين، كالمنفلوطي والعقاد والرافعي، هي الوسيلة الوحيدة لتحسين أسلوب الطالب. وكنت، و أحسبني لا أزال، أرى أن أي قراءة تنفع ولا تضرّ، وأن حصر القراءة في كتب معينة، كُتِبَ بعضها بأسلوب صعب، ينفر الطالب من القراءة. ذات يوم استعر النقاش بيني وبين أستاذ من أساتذتي حول هذه النقطة، وكان نقاشاً مؤدباً رقيقاً على أية حال. قلت إني استفدت كثيراً من قراءة "روايات الجيب"، وهي سلسلة يذكرها المخضرمون، تحتوي على قصص مترجمة مختصرة من بساتين الأدب العالمي، ورأى الأستاذ أن قراءة كتب مثل "روايات الجيب" لا تغني ولا تسمن من جوع. خلال النقاش طلب الأستاذ مني أن أحضر كتباً أختارها من "رواية الجيب" ويحضر هو كتباً يختارها لطه حسين، وأقرأ أنا ويقرأ هو، ونترك الحكم للفصل كله. فكرت في الأمر وقررت أن هذه معركة سوف أربحها، مرة إذا ربحتها، وسوف أخسرها، ألف مرة، إذا ربحتها، وآثرت الانسحاب المنتظم من التحدي.

مع مدرّسي الذي التقيت به في التوجيهية، لم تكن هناك عقدة من العقدتين القديمتين. لم يكن يرى غضاضة في منحي الدرجة النهائية في الإنشاء، وقد ظفرت بها أكثر من مرةّ، وكان يرى أن حصر القراءة على كتب مخصوصة، ومؤلفين محدودين، تضييق لا مُبرّر له. كان هو يقرأ في كل مجال، وكان حريصاً على تشجيعنا على القراءة في أي مجال. كان سعيداً بموهبتي الشعرية، ولم يكن يترك مناسبة تمر دون الإشادة بها.

تقودني حكاية الموهبة الشعرية إلى قصة لا تخلو من غرابة. كنت قد كتبت أيامها قصيدة عنوانها "الإسلام بين الأمس واليوم"، تجاوز عدد أبياتها سبعين بيتاً. أعجب أستاذي بالقصيدة واحتفظ بنسخه منها، ذات يوم هبط على الفصل مفتش "مملوء بنفسه" كما يقول التعبير الإنجليزي. أسرع المدرس يعرض عليه القصيدة، مزهواً بطالبه الشاعر. بدأ المفتش يقرأ القصيدة، وملامحه تتجهم وتكفهرّ. كنت أتساءل بيني وبين نفسي: "هل الشعر رديء إلى هذه الدرجة؟". إلا أن المسألة كانت أخطر وأدهى وأمر. طلب مني المفتش أن أذهب معه ومع المدرّس إلى غرفة أخرى. هناك اتهمني بسرقة القصيدة وطلب مني أن أعترف بالسرقة، وأوضح من أين سرقتها، ووعد أن ينتهي هذا الموضوع عند هذا الحد. قلت إني كتبتها بنفسي. لم يزده الجواب إلا غضباً، وسرعان ما تحول الحوار

إلى امتحان. سألني عن اسم البحر، وسأل عن تفعيلاته، وطلب مني أن أقطع الأبيات حسب التفعيلات. فعلت كل هذا بسهولة متناهية، وعندما انتهى الامتحان كان المفتش في حالة يرثى لها من الغيظ، وطلب مني ومن المدرس مغادرة الغرفة. لم يقل مدرّسي شيئاً خلال هذه المواجهة العجيبة، ولكنه كان يحمل في عينيه نظرات حزينة تغني عن آلاف الكلمات.

حسناً؟ كان هناك، للأسف، النوع الآخر من المدرسين. لنعد إلى مدرّس الرسم الذي وقعت بين براثنه بعد عهدي الذهبي القصير. كان من جماعة النقل الحرفي، جماعة"عدسة الكاميرا". وسرعان ما بدأ يطبق المبدأ. وجدت نفسي بعد التشجيع لا أظفر إلا بكلمات الاستخفاف والإهانة. أذكر الآن قصة طريفة، لم أعتبرها طريفة وقتها. طلب منا أن نرسم مشهداً عن "صراع بين سمكة وثعبان"، والموضوع نفسه يعطيكم فكرة عن عقلية المدرّس. قضيت عدة ساعات في الرسم والتلوين. فوجئت بلوحتي -إن جاز أن نسميها لوحة- تعود إليّ بدرجة صفر، إن جاز أن نسميها درجة لم أجادل أستاذاً، قط، قبلها أو بعدها على درجة تلقيتها، ولكني وجدت أن من حقي أن أعترض. قلت له: "ماذا ستعطيني لو قدمت الورقة بيضاء"؟ قال ببساطة "الدرجة نفسها ٠ صفر". قلت: "ألا ترى، يا أستاذ، أن من بذل مجهوداً كبيراً يستحق أن يعترف

بمجهوده بصرف النظر عن النتيجة؟" لم يقل شيئاً، وقتها، ولكنة عدّل الدرجة بعدها لتصبح، كما يمكننا أن نتوقع، أربع درجات من عشرين.

كانت علاقتي بمادة الحساب، وبعدها الرياضيات، علاقة سيئة شبيهة بعلاقتي بمادة الرسم. لعلّه من قبيل المصادفة أنني لم ألتق بمدرس واحد من مدرسي هذه المادة لم يكن متخصصاً في التنفير من المادة. أيامها، كان أساتذة الرياضيات، في مجموعهم لا أفرادهم، يتصرفون وكأنهم كهنوت ائتمن على ألغاز وطلاسم مضنون بها على غير أهلها. ولعلّه من قبيل المصادفة أيضاً أن تفوقي في الأدب كان يثير ثائرة مدرسي الرياضيات، سنة بعد سنة. سمعت من مدرس ذات يوم: "أجهل الناس هم المتعلقون بحبال الشعر". وسمعت من مدرس آخر إشارة ساخرة إلى مساهمتي النشطة في جمعية التمثيل: "أين يجد يوسف وهبي الوقت لكي يحل مسألة رياضية؟!".

أعتقد أنه اتضح، الآن، أن حبي لمواد بعينها لا يمكن فصله عن إعجابي بمدرّسي هذه المواد، كما أن النفور بيني وبين مدرسي مواد أخرى مرتبط ارتباطاً عضوياً بنفوري من هذه المواد. هذه العلاقة بين المدرس والمادة انتقلت إلى المرحلة الجامعية، بمراحلها الثلاث، الليسانس والماجستير والدكتوراه. وإذا كنت أقصر حديثي اليوم

على مدرسي ما قبل الجامعة، فإنني لا أفعل ذلك إقلالاً من أهمية مدرسي الجامعة وقد كنت ذات يوم، لحسن حظي، واحداً منهم - ولكن لأنني أرى أن تأثير مدرس الجامعة، على خطورته، لا يبلغ عشر معشار تأثير مدرّس ما قبل الجامعة. والسبب بسيط: عقل الصبي صفحة بيضاء يستطيع المدرس أن يملأها بما يريد. أما في المرحلة الجامعية فإن الصفحة تتحول إلى صفحة مليئة بالتجارب غثها وسمينها. لا يستطيع المدرس الجامعي، بالغاً ما بلغ تأثيره، أن يغيّر مساراً أو يوجد ثقة أو يخنق طموحاً أو يقضي على موهبة.

أعتقد أنه اتضح، أيضاً، أنني أرى أنه في معادلة المنهج / المدرّس يلعب المدرس دوراً لا يصل إليه، ولا يقارن به، دور المنهج. أعرف أن الجدل يحتدم هذه الأيام حول المناهج، ويدور حول فلسفة المنهج كله، كما يدور حول مناهج بعينها. هذا الجدل ظاهرة إيجابية، خاصة إن نجح المتحاورون في التخلص من انفعال لا مبرّر له، ومن اتهامات متبادلة لا مكان لها. في معركة المناهج، إن جاز أن نسميها معركة، لا يوجد "ملائكة" في جانب يواجهون "شياطين" في الجانب الآخر. هناك اجتهادات مشروعة، آمل، كما تأملون، أن تنقل مناهجنا إلى الأفضل. إلا أن المناهج لا تدرّس نفسها بنفسها. بوسعنا أن نغير وأن نبدّل، أو نحل مناهج جديدة محل المناهج القديمة دون أن نصل إلى النتائج المرجوة، إلا إذا تمكنا من العثور على المدرّس الناجح.

آه! المدرس الناجح! هنا أمّ التحديات! وهنا لا أستطيع أن أقول لكم ما يتعدى الخواطر الشخصية، البضاعة المزجاة في كل مكان وزمان. تجربتي الطويلة مع المدرسين علمتني أن للمدرس الناجح أربع صفات لا تفارقه، ولا يفارقها. الصفة الأولى هي عشق المادة التي يدرّسها، والصفة الثانية هي محبة الطلاب الذين يدرّسهم، والصفة الثالثة هي القدرة على التواصل، والصفة الرابعة هي التسامح الفكري. ولا بدّ من تعليق موجز على كل صفة. لا يكفي أن يتخصص المدرس في مادة ما - فالتخصص مهارة لا تغني عن الحب. أعرف، كما تعرفون، أن التخصص قد تحكمه اعتبارات لا علاقة لها بحب أو كره. أتصور أن المدرس الذي لا يعشق مادته، والعشق أقوى من الحب فيما يقال، لن يتمكن من أن يكون مدرساً ناجحاً. وحبّ المادة يجب أن يمتد إلى حب الطلاب، والحب يحمل، ضمن ما يحمل، معاني الاحترام والتشجيع والشفقة. أعرف، كما تعرفون، أن التجربة تشير إلى أن عدداً لا يستهان به من المدرّسين لا يحملون لطلابهم مشاعر يمكن للمراقب الموضوعي أن يصفها بالمودة، فضلاً عن الحب. والقدرة على التواصل خصيصة أساسية من خصائص المدرّس الناجح. أعرف، كما تعرفون، أن أكثر الناس علماً ليس، بالضرورة، أقدرهم على نقل هذا العلم للآخرين. أما التسامح الفكري المتوقع من المدرس الناجح فيسير في مسارين:

أولهما: قدرة المدرس على أن يدرك أنه لا توجد طريقة واحدة صحيحة للتدريس، وثانيهما: أن يتقبل أن يحمل طلابه أفكاراً قد تختلف كثيراً أو قليلاً عن آرائه الشخصية. إن مسؤولية المدرّس، كمهمة الأب، لا تعني أن يحاول صياغة الطالب أو الابن على مثاله، أن يجعله، بعبارة أخرى، نسخه فكرية منه، ولكنها على العكس، تعني أن يعين الطالب أو الابن على أن ينمو بشخصية مستقلة، أول مظاهر استقلالها الاستغناء عن ظل المدرس، أو ظل الأب. أعرف، كما تعرفون، أننا لا نجد بين الآباء، أو بين المدرّسين، هذه النظرة في كل الأحوال والظروف.

حسناً! أوشك أن أقول إن المدرس الناجح، كالشاعر الناجح، مدرس موهوب، وأن المدرس الموهوب، كالشاعر الموهوب، يولد بموهبته، أوشك ولكنني لا أقول. لو جرأت على إصدار حكم خطير كهذا لأقحمت نفسي، ظالماً لها، في ميدان سبق أن اعترفت أني لم أدرسه على أي نحو. على أنني أتمنى، وباب الأمنيات مفتوح لكل أحد، أن يتمكن خبراء التربية من تطوير آلية تستطيع اكتشاف هذه الخصائص الأربع في مدرّسي المستقبل وتستطيع تبين غيابها. عندما توجد الخصائص يمكن أن تُطوّر وتُنمّى في مدرسي المستقبل، وعندما يتبين غيابها يجب أن يعفى مدرس المستقبل وطلبة المستقبل من عقاب لا مبرر له بتوجيه المرشح إلى مهنة غير

مهنة التدريس النبيلة الجليلة. أعتقد أنه لو أمكن الوصول إلى آلية كهذه فسيكون هذا الإنجاز أعظم ثورة شهدها التعليم منذ اكتشاف الأبجديات والأرقام.

التجديد في شؤون الدين والدنيا(*)

لابد بين يدي هذا الحديث أن أقول إن مقدمه لا يدعي تبحراً في الشريعة، والشريعة بحر، ولا تخصصاً في الفقه، والفقه تخصص يستنفد أعماراً كاملة، بل يتحدث باعتباره مسلماً عادياً أخذ من بعض العلوم بطرف. وأحسب أن من حق المسلم الذي تعورف على تسميته مثقفاً أن يدلي برأي حول موضوع يهم المسلمين عامة، موضوع يذهب البعض إلى أنه أهم ما يطرح على الساحة الفكرية الإسلامية، وهو موضوع المراجعة والتجديد. ولقد يجوز لي هنا أن أستشهد برأي لابن تيميه يقول فيه:

> العامي إذا أمكنه الاجتهاد في بعض المسائل جاز له الاجتهاد، فإن الاجتهاد منصب يقبل التجزؤ والانقسام فالعبرة بالقدرة والعجز، وقد يكون الرجل قادراً في بعض عاجزاً في بعض(**).

(*) من محاضرة ألقيت في مسقط في ١٤٢٦/١١/٢٥هـ - ٢٠٠٥/١٢/٢٧م.

(**) ابن تيمية، **الفتاوي**، المجلد العشرون ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

لكم، والحالة هذه، أن تعتبروا حديث الليلة من قبيل اجتهاد العامي، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن الشيطان ومن نفسي كما قال أحد السلف الصالح.

ألحظ في بداية الحديث أن التجديد في الفكر الديني يقابل، عادة، بمعارضة سياسية عنيفة. لا يمكن لمذهب أن يدوم ويستقر بلا عصبية، حسب التعبير الخلدوني، وبلا سلطة سياسية حسب التعبير المعاصر. هذه السلطة كثيراً ما ترى في التجديد الديني ما يهدد وضعها السياسي فتلجأ إلى رفضه دون تمحيص أو تفكير. وإلى جانب هذه العوامل السياسية تقف التحزبات المذهبية. عندما يستقر المذهب، أي مذهب في أي دين، تنشأ أجيال متتابعة من المقلدين الذين يعدون تقليد مشايخ المذهب هدف العلم وغايته. المفارقة التي ينساها المقلدون أن المذهب، أي مذهب، عندما نشأ كان حركة تجديدية مليئة بالحيوية والتمرد. كان ظهور مدرسة الرأي احتجاجاً، من نوع أو آخر، على مدرسة الحديث. ونشأ الاعتزال رداً عنيفاً على موجه الفكر الجبري الخانق. وعادت السلفية إلى المركز عندما ثار أحمد بن حنبل، بطريقته الخاصة، على الطغيان الفكري الذي مارسه الاعتزال في أوج صعوده، وهلمّ جرّا.

وإذا كان التجديد في الموروث الديني يقابل عادة بالرفض، فمراجعة الموروث الحضاري بالموروث تقابل -بدورها- بردود فعل

رافضة. كثيراً ما يخلط الموروث الحضاري بالموروث الديني على نحو يجعل من الصعب التفرقة بينهما، وهنا تصبح مقاومة التجديد في نظر المعارضين واجباً دينياً لا يختلف عن الدفاع عن الدين نفسه. ولي هنا أن أستذكر أن كاتباً اقترح مرة، جاداً غير هازل، أن يجلد كل من يكتب الشعر الحر عقوبة له وردعاً لأمثاله. وبعض المؤلفات التي تتعرض للأدب العربي الحديث تكتب لا بعقلية البحث الموضوعي ولكن بعقلية الاتهام والمحاكمة. وهناك سبب إنساني آخر يصب في معارضة التجديد. إن البشر، عموماً وإجمالاً، وفي كل زمان ومكان، يستمرئون العيش الهادئ في ظل ما عرفوه من أنماط وأنساق وأعراف، متخوفين من كل جديد، والناس، كما قيل بحق، أعداء ما جهلوا - كانوا وما يزالون.

على أنه كائنة ما كانت طبيعة القوى التي تسدّ الطرق أمام المراجعة فإن هناك اعتبارات جوهرية تجعل المراجعة أمراً لا مناص منه. إن العيش في مجتمع اليوم المفتوح، مجتمع الحدود المفتوحة، مجتمع العولمة الزاحفة والسيادة المتهاوية، يختلف جذرياً، في مشاكله وتحدياته، عن العيش في مجتمع الأمس المغلق الذي كان يستطيع باسم السيادة أن يتحكم لا فيما يدخل الحدود والأسواق والمنازل فحسب بل في ما يدخل العقول. إن وتيرة التطور البشري تضع إنسان اليوم أمام معضلات لم يسبق لإنسان من قبل أن

واجهها، معضلات كالاستنساخ، الحيواني منه والبشري، وتربية الأعضاء كما تربى الدواجن، والتحكم في خارطة الجينات على نحو يأتي بالأولاد حسب الطلب، والقتل الرحيم. لا يوجد في كتاب من كتب الفقه فصل عن ثقب الأوزون، ولم يتعرض الجاحظ في أي من موسوعاته لأسلحة الدمار الشامل.

وإذا كانت طبيعة الواقع تجعل من التجديد أمراً مفروضاً فطبيعة التقدم تجعل منه أمراً مطلوباً مرغوباً فيه. إن استقراء التاريخ يؤكد أن كل تقدم حققته البشرية كان نتيجة اختراع جديد لم يكن معروفاً من قبل. عندما تمكن الإنسان القديم من صنع الأدوات تغير مجرى التاريخ. وعندما استطاع أن يدجن الحيوانات وأن يزرع الحبوب تغير مرة ثانية، وعندما أتقن القراءة والكتابة تغير مرة ثالثة، وعندما توصل إلى كشف قوانين الطبيعة تغير مرة رابعة، وعلى نحو درامي باهر. إن التفوق المادي الهائل الذي يميز الحضارة الغربية لم يكن ليتحقق لولا جاليلو ومحاكمته المثيرة، ونيوتن وتفاحته الشهيرة، وأديسون ومشكاته المنيرة، ولم يكن ليصل بالإنسان إلى الفضاء الخارجي لولا أينشتاين ومعادلاته الرياضية. إن الحضارة الغربية اليوم، في مجملها، من صنع الثورة الصناعية، وهي، في جوهرها، من صنع الثورة العلمية التي ناقشت ما لم يكن يناقش من مسلَّمات. يعزو المؤرخ الكبير توينبي إنجازات البشرية

الكبرى إلى ما يسمّيه الأقلية الخلاقة. إذا صح قوله، وأحسبه صحيحاً، فمؤداه أن أي تطور لابّد أن يعبر بالابتكار والتجديد.

قبل أن أتحدث عن التجديد في الفكر الديني لابُدّ أن أوضح بجلاء ما بعده جلاء أن التجديد لا يعني التجديف والمراجعة لا تعني الهرطقة. إن التجديد الديني المنشود هو التجديد النابع من الدين نفسه، المتمسك بثوابته، المتقبل لأساسياته لا التسلل المشبوه الذي يتحدث عن التجديد وهو ينوي التبديد. ومن الضروري هنا أن أقول إن ما تقذف به المطابع هذه الأيام بين حين وآخر من كتب صفراء تهاجم محدثاً شهيراً أو إماماً جليلاً باسم الاجتهاد ليست من التجديد في شيء، وإنما هي فقاعات مملوءة بحقد دفين لا على المحدّث أو الإمام فحسب بل على دين الله الحنيف كلّه. لابُدّ من التحذير من كتب كهذه، تغازل في عناوينها المثيرة الأهواء الطائفية وتتكشف بعد الفحص عن غثاء مسموم يمسّ كل طائفة.

كما أن التجديد المنشود لا يتحقق بإصدار فتوى هنا وهناك عن هذا الموضوع أو ذاك. الفتوى هي إنزال الحكم الشرعي على واقعه أو وقائع بذاتها، وتستمد قيمتها من سعة علم المفتي وسعة ملكاته وطاقاته الذهنية. إلا أن الفتوى وإن أتت بجديد في موضوعها المحدّد تبقى اجتهاداً في مسائل فرعية، محكوماً، في

الغالب، بمنهجية مذهبية محددة - وهذا المجهود، على أهميته، لا يرقى إلى مستوى التجديد.

التجديد المطلوب في رأيي هو الذي يتجاوز آراء المذهب التي ينقلها فقيه عن فقيه، ويستنسخها مجلد عن مجلد، وتسافر من حاشية إلى حاشية. التجديد هو الفكر الذي يقفز فوق هذا كله ليعود إلى المنبع الأصلي، ومنبعنا الأصلي، كما يعرف كل مسلم، هو القرآن الكريم والسنة المطهّرة. من المفارقات، إذن، أن تجديد الفكر الديني لن يتحقق بالركض إلى الأمام ولكن بالعودة إلى ما وراء الوراء، ما وراء التقليد المتراكم نفاذاً إلى النبعين الأصليين المطهرين. ولعلنا نتبين هنا ضلال الذين يتصورون أن بوسعنا اقتباس التجديد المنشود من حركة مارتن لوثر، أو من استعراض تجارب التجديد المختلفة في الأديان المختلفة.

ظهرت في العقود الأخيرة عشرات الكتب التي تعالج تجديد الفكر الديني. وأكذب إذا قلت إني قرأتها كلها أو قرأت معظمها. ولكني لا أكذب إذا قلت إني ألممت بجملة لا بأس بها. وجدت جهداً أدعو الله أن يجزي أصحابه أجرين أو أجراً واحداً - ولكني لم أجد التجديد الحقيقي الذي أوجزت ملامحه قبل برهة. حقيقة الأمر أني لم أجد في أي من الكتب المعاصرة تجديداً يرقى إلى التجديد الذي قام به مفكر جليل قبل عدة قرون هو العالم العظيم الإمام ابن حزم الأندلسي.

ينهض تجديد ابن حزم على محاولة جادة حاسمة للتفريق بين ما هو إلهي، يؤخذ بلا مناقشة، وبين ما هو بشري، يؤخذ منه ويترك. هذه التفرقة، على بساطتها النظرية، ليست واضحة، في الواقع الملموس، لدى الكثيرين. هل يعرف أتباع مذهب ما الفارق بين فتوى مبنية على نص صريح من الكتاب أو السنة وبين فتوى مبنية على قياس أو استحسان؟ وهل يدرك متلقي الفتوى الفارق بين حكم يُردّ مباشرة إلى القرآن الكريم وبين حكم مبني على سد الذرائع؟

يتحدث ابن حزم عن الوحي، مصدر التشريع الوحيد عنده، فيقول:

> إن الوحي ينقسم من الله عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على قسمين: وحي متلوّ مؤلف تأليفاً معجز النظام وهو القرآن، والثاني وحي منقول غير مؤلف ولا معجز النظام ولا متلوّ ولكنه مقروء، وهو الخبر الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ووجدناه تعالى قد أوجب طاعة هذا القسم الثاني كما أوجب طاعة القسم الأول(*).

(*) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام (بيروت: منشورات دار الأفاق الجديدة. د. ت) الجزء الأول ص ٧٩.

ويعلق الشيخ محمد أبو زهرة على منهج ابن حزم فيقول:

يرى ابن حـزم أنه لا رأي في الدين، فليس لأحد أن يجتهد برأيه أو يدعي أن ذلك حكم الله تعالى، وليس لأحد أن يتحدّث عن الله غير رسول من عند الله، ومن قال في الدين برأيه فهو عند ابن حزم مفتر على الله قد كذب عليه. وإذا كان ابن حزم ينفي الاجتهاد بالرأي فقد سدّ باب الاستنباط بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة وسدّ الذرائع(*).

ويضيف الشيخ أبو زهرة:

ابن حزم يقرّر أنه لا يسوغ تقليد أحد من الصحابة ولا من غيرهم لا من الأحياء ولا من الأموات، ويعتبر الأخذ بقول الصحابي من غير حجة من السنة النبوية تقليداً غير جائز في دين الله تعالى، فإنه لا يأخذ إلا بالكتاب أو السنة أو الإجماع القائم على نص منهما، أو الدليل المشتق من هذه الأمور الثلاثة(**).

كان ابن حزم مؤلفاً موسوعياً غزير الإنتاج، ولكنه كان حاد اللسان، عنيف المناظرة، خاض الكثير من الخصومات وخاضها

(*) محمد أبو زهرة، **ابن حزم حياته وعصره وآراؤه وفقهه** (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٧) ص٤٢١.

(**) المرجع السابق ص٤١٣.

بالكثير من الاعتداد والقوة. لعل جرأة أبي حزم المتمثلة في إهداره مصادر تشريعية تعتد بها مذاهب عديدة أخرى، بالإضافة إلى طبعه الحاد، هي المسؤولة عن بقاء مذهبه شبه مهجور، مذهب بلا أتباع. وكم يؤلمني، في يومنا هذا، أن أرى من الفقهاء من يتحدث عن ابن حزم فلا يرى في منهجه غير أخذه بظاهر النصوص، ويكاد يقصر تعليقاته على آراء غريبة فرعية لابن حزم - وكأنه المجتهد الوحيد الذي نقلت عنه آراء غريبة.

ومن حسن الحظ أن منهج أبي حزم لقي أصداء عديدة في القرن العشرين الميلادي، لعل أهمها الصدى الذي نجده عند محمد أسد، المفكر المعروف الذي ولد يهودياً ثم اعتنق الإسلام وروى حكاية إسلامه في كتابه الجميل **الطريق إلى مكة**، وترك لنا تراثاً قيماً جديراً بالتأمل والدراسة أهمه كتابه **رسالة القرآن** يقول محمد أسد:

> إن كثيراً من الاستنتاجات الشخصية للفقهاء لا تعدو أن تكون انعكاسات لزمن معين وعقلية معيّنة؛ ولهذا لا يمكن أن تدّعي أنها أحكام ذات حجّية خالدة.. إن نصوص القرآن والسنة وحدهما ودون غيرهما هي التي تشكل في مجموعها شريعة الإسلام الخالدة(*).

(*) MOHAMAD ASSAD, **THE PRINCIPLES OF STATE AND GOVERNMENT IN ISLAM,** GIBRALTER: DAR ALANDALUS, 1982P.B

ومن هذه القاعدة ينطلق محمد أسد فيقرر "إن الشريعة لا يمكن تغييرها لأنها شريعة إلهية"(*). أما ما لم تنص عليه الشريعة فيعتبره مباحاً يجوز للمسلمين في هذا العصر أن يجتهدوا فيه غير مقيدين بالكم الهائل المتراكم من استنتاجات الفقهاء وتفسيراتهم.

من الضروري هنا أن نوضح أن محمد أسد لا يترك الاجتهاد في الأمور العامة لفقيه أو فقهاء؛ ولكنه يكله إلى السلطة التشريعية المنتخبة.

لو أخذت كل المذاهب بهذه التفرقة الصارمة بين ما هو مقدس لا يُمس (الشريعة)، وما هو بشري قابل للأخذ والرّد (الفقه) لتغير مجرى الفكر الإسلامي وانعدم الركون إلى التقليد، وسادت روح الاجتهاد وخفت حدة التعصب المذهبي. إلا أن هذه الفكرة لم تلق حين أطلقت، ولا تلقى اليوم، الكثير من القبول. والسبب، كما سبق أن ألمحت، بالإضافة إلى السياسة، يعود إلى التحزّب الذي يجعل أنصار المذهب يرفضون التخلي عن شيء جاء في المذهب.

إن المقولة المشهورة المنسوبة إلى أبي معروف الكرخي والتي تذهب إلى أن كل نص يخالف ما عليه أصحابه إما منسوخ وإمّا مُؤوّل لا تزال إلى اليوم شعار الكثيرين من أتباع المذاهب. وهكذا

(*) المرجع السابق، ص١٠.

تنعكس الصورة فيعرض القرآن الكريم والسنة المطهرة على رأي بشري، بدلاً من العكس، وتلك -والله!- قاصمة الظهر. الحق أقول لكم، إني لا أعلق كبير أمل على أيّ تجديد لا يفرق تفريقاً حازماً حاسماً بين وحي الله عز وجل وبين آراء البشر.

أنتقل، الآن، إلى الموروث التاريخي، وأعني به ذلك الجزء من التاريخ الذي نحمله في أنفسنا، بالإضافة إلى ذلك الجزء الذي نقرأه في كتب التاريخ. الصلة بين الجزأين وثيقة جداً. نحن، إلى حد كبير، من صنع تاريخنا، وتاريخنا يتشكل، إلى حد كبير، من كيفية تعاملنا معه. تذهب المقولة الشهيرة: إن الذين لا يتعلمون من التاريخ يحكم عليهم بإعادته، وهي مقوله فيها قدر من الصواب. الخطوة الأولى في مراجعة الموروث التاريخي إذن هي أن نبدأ بأنفسنا فنتصفح ما تركته أجيال متعاقبة من التجارب فيها. إن التاريخ المليء بالقهر لا يمكن أن ينتج جيلاً يعشق الحرية، والتاريخ المطرّز بالاستبداد يصنع نفوساً طبعتْ على حب الاستبداد. والخطوة الثانية هي أن نعود إلى تاريخنا لنقرأه بعيون مفتوحة وقلوب مفتوحة. قلت في موضع آخر:

يجب أن ندرس تاريخنا من جديد ونحلله بموضوعية لندرك أنه لم يكن سجلاً من الفتوحات الرائعة والانتصارات المجيدة فحسب، كما نعلّم طلاّبنا

في المدارس، بل تضمن، بالإضافة إلى صفحاته المضيئة العديدة، صفحات مظلمة تضمنت إهداراً لآدمية الإنسان المسلم وسحقاً لكرامته. في تاريخنا كتب أحرقت، وعلماء جلدوا، ومفكرون صلبوا لأن أصحاب الموقف لم يتفقوا ولو في جزئية صغيرة مع تفكير السلطة الحاكمة(*).

ويكفي للتذكير بالصفحات السوداء من تاريخنا والتخويف من تكرارها أن أشير إلى **موسوعة العذاب**، وهي مؤلف من سبعة مجلدات، وضعه الباحث العراقي عبود الشالجي(**) ووصف فيه من صنوف التعذيب المرعبة عبر تاريخنا كله ما يجعل جلد القارئ يقشعرّ، وجبينه يتصبب عرقاً وخجلاً مهانة.

ألحظ، ولعلكم تلحظون معي، أن تاريخنا المكتوب، في جملته، سرد يكاد يخلو نهائياً من التحليل، كما أنه في أغلبه تاريخ حكام أفراد. تقدّم لنا كتب التاريخ الوقائع وكأنها حدثت بتلقائية لا دور فيها للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكأن البطل الأول والأخير، أو الشرير الأول والأخير، هو الحاكم الذي دارت

(*) غازي عبد الرحمن القصيبي، **الغزو الثقافي ومقالات أخرى** (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩١م) ص٥١.

(**) عبود الشالجي، موسوعة العذاب (بيروت: الدار العربية للموسوعات د. ت).

الأحداث في عهده. لقد ارتبط تاريخنا بالأفراد ارتباطاً وثيقاً دفع بعض الباحثين الغربيين إلى القول إن تاريخ الأمة العربية لا يعدو أن يكون تاريخ أفرادها البارزين. وأحسب أن الأوان قد حان لفك هذا الارتباط. نحن نعرف اليوم أن الحدث، أي حدث، يولد نتيجة تفاعلات لا تكاد تحصر، ونسبته إلى فرد تحمل الكثير من التجني على الحقيقة. يجب أن يتزود الباحث بأسلحة العلوم الاجتماعية كلها، من علم السياسة إلى علم الإنسان إلى الاقتصاد إلى علم النفس، قبل أن يسمح له بالدخول إلى صفحات التاريخ. آن أن يتقاعد الراوية، الذي تخصص في بطولات عنتر وشرور أعدائه، وأن يجيء المحلل الذي يعرف الكثير عن العقل الباطن وعوامل الإنتاج والصراع الديالكتيكي. إنني أزعم، وأوشك أن أؤكد، إن قراءة تاريخنا بهذه النظرة العلمية الموضوعية ستزيح عن أرواحنا الكثير من العقد، وتقودنا إلى المزيد من التسامح.

ويسير بنا الموروث التاريخي إلى الموروث الاجتماعي. - هنا ألحظ إن القبيلة لعبت، ولا تزال تلعب، دوراً كبيراً في تركيبتنا الاجتماعية. وهنا لابدّ من التحذير من الوقوع في مزلقين كثيراً ما يقع في أحدهما من يتعرض بالبحث للقبيلة: مزلق تمجيد القيم القبلية وتقديسها، ومزلق الانتقاص منها وازدرائها. القبيلة، في حقيقة أمرها، رابطة يمكن أن تقوى فتطغى على كل رابطة، ويمكن

أن تضمر فتصبح مجرد عاطفة رمزية، والقبيلة في تاريخنا، وفي كل تاريخ، تقوى عندما تصبح مصدر الأمن والعيش والعدل لأبنائها، وتضعف عندما تتمكن السلطة الحاكمة من توفير الأمن والعيش والعدل لكل المواطنين. التعامل مع القبيلة وقيمها، إذن، لا يتم عبر التمجيد أو الانتقاص ولكن عبر إدراك واع للحاجات التي تشبعها القبيلة وقيام الدولة تدريجياً بإشباع هذه الحاجات. إن الانتماء القبلي الطاغي يتعارض مع الانتماء الوطني الحقيقي، ولكن الانتماء الوطني لا يتحقق بالشعارات أو بالقمع، بل يتحقق عندما يعامل الوطن كل مواطن، كل مواطن بلا استثناء، كما تعامل القبيلة كل فرد فيها. التحدي الذي يواجهنا، والحالة هذه، لا يتمثل في محاربة الولاءات القبلية، ولكنه يتمثل في إيجاد ولاء كبير عميق للوطن يمكن أن يتعايش معه ولا يطغى عليه، ولاء قبلي مشروع.

عندما ننتقل إلى الموروث السياسي نلحظ مع المفكر العربي المعروف محمد جابر الأنصاري أن الممارسة السياسية العربية وئدت في وقت مبكر على يد النخب الرعوية غير العربية التي استولت على الحكم في مركز الخلافة في بغداد، ثم انتشرت في كل مكان تحكم قبضتها على محكومين لا حول لهم ولا قوة. كانت هذه النخب عسكرية فظة شبه أمية، تقتصر أولويّاتها على جمع المال وجمع السلطة، ولا تحتوي أجندتها على تعددية من أي نوع.

ومع المفكّر نفسه نذهب إلى أن الممارسة السياسية السليمة لا تتأتى اليوم إلا في ظل الدولة القطرية، الدولة التي يجب حمايتها من التحلل أو الذوبان في كيانات أخرى، حقيقية أو وهميّة. تشير كل التجارب الماضية إلى أن الدولة القطرية هي أفضل الخيارات السياسية المتوفرة - وفي داخل هذه الدولة يجب أن تتطور الممارسة السياسية متناغمة لا مع ضغوط من الخارج بل مع إيقاع الجمهور وتوقعاته، قلت في موضع آخر:

> إن الخيار ليس، كما يتصور أعداء التغيير، بين الديمقراطية الغربية التي لا نستطيع نقلها حتى لو شئنا وبين "الخصوصية الوطنية" المتسمة بالجمود والهمود. بوسعنا إذا انعقد العزم تطوير تعددية حقيقية بمؤسسات فاعلة تعكس رأي الشعب دون أن نفقد ذرة واحدة من أصالتنا العربية والإسلامية. إلا أن التعددية لا يمكن أن تنشأ في فراغ. هناك مقومات أساسية لايمكن إذا انعدمت أن يسود أي نظام سوى النظام القمعي. من هذه المستلزمات وجود أغلبية متعلمة ميسورة الحال، ومنها وجود مجتمع مدني نشط له مؤسساته الحرّة الفاعلة. ومنها أن تذوب الولاءات الضيقة، بمختلف أنواعها، في ولاء أعمق

للوطن. ومنها وجود قضاء مستقل. ومنها وضع إجراءات تحمي المواطن من الاعتقال التعسفي. ومنها ازدهار تقاليد من التسامح وقبول الرأي الآخر. هذا، كله، يستحيل تحقيقه بين يوم وليلة، ويتطلب إصلاحات تدريجية متلاحقة تحتاج إلى مدى زمني معقول (لا أتحدث عن قرن أو قرنين: أقصد عقداً أو عقدين)"(*).

(*) غازي عبد الرحمن القصيبي: **أمريكا والسعودية: حملة إعلامية أم مواجهة سياسية؟** (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢م) ص١٣٤.

القمة العربية... سأعلّق الجرس![*]

تقتضي الأمانة أن أقول، قبل أن أكتب حرفاً واحداً، أن كل ما سأورده هنا مبنيّ على معلومات متاحة للجميع، ولم أحصل على شيء منها بسبب موقع رسمي في الحاضر أو الماضي. وتقتضي الأمانة أن أضيف أن كل الآراء التي سأعرب عنها فيما يلي لا تمثل سوى موقف كاتبها، هذا المواطن العربي الحزين المُحبط.

بادئ ذي بدء، ألحظ أنه كلما اقتربت قمة عربية قامت قيامة الكتاب والصحافيين العرب، ولم تقعد. تنهمر من المحيط إلى الخليج مئات المقالات على القمة بمطالب عجائبية تتوقعها الأمة العربية من قادتها. ثمة خطأ منهجي خطير إمّا في تفكيري أو في تفكير مئات المعلقين والصحافيين العرب كاتبي هذه المقالات. وأفضّل، لأسباب سلمية، أن يكون الخطأ المنهجي خطأي أنا! ما الذي يجعل الخلافات العربية تختفي لمجرد أن الزعماء العرب

(*) مقالة نشرت في جريدة الشرق الأوسط - الأحد ٢٠ ذي الحجة ١٤٢٠ - ٢٦ مارس ٢٠٠١م العدد ٨١٤٥.

يجلسون في قاعة واحدة؟ بعبارة أخرى، هل توجد عصا سحرية، اسمها عصا القمة، تستطيع في جلسة واحدة أن تحل النزاعات التي فشلتْ في حلها جموع من الوزراء والسفراء والمبعوثين والاتصالات اليومية؟ أقول، وأجري على الله وحسابي عليه سبحانه، أن القمة لا تملك عصا من أي نوع، لا من النوع السحري، ولا من النوع الذي يُهش به على الغنم. وأضيف، وأجري على الله وحسابي عليه سبحانه، إن أي تصوّر غير هذا هو رحلة لذيذة في وديان الأوهام وعوالم الأماني الساحرة.

لا توجد وصفة سحرية تجعل من اجتماع عشرين زعيماً أمراً يختلف عن الاجتماعات الثنائية أو الثلاثية أو الرباعية. ولا توجد وصفة سحرية تجعل الزعماء البعيدين عن عواصمهم قادرين على حل معضلات عجزوا عن حلها وهم مستقرون مستريحون في عواصمهم. المشكلة بين العراق والكويت، وسوف أعود إلى تفاصيلها بعد حين، كيف تختفي لمجرد انعقاد القمة؟ ألم يشهد الرأي العام الشريط المسرّب عن القمة المبكية/المضحكة التي أعقبت احتلال الكويت؟ والمشكلة بين القيادة السورية والقيادة الفلسطينية لماذا تختفي لمجرد وجود شهود على لقاء الزعيم السوري والزعيم الفلسطيني؟ وعقدة الوجود السوري في لبنان كيف يمكن أن تمحوها القمة؟ والخلاف بين ليبيا وفلسطين كيف يمكن أن يتطاير في الهواء لمجرد أنه يُبحث في عمّان؟

القمم العربية، منذ أن وجدت، تبحث كل شيء (هناك قرارات توحيدية تفوق القرارات التي تربط الولايات المتحدة الأمريكية!!) ما عدا الشيء الأساسي المركزي الذي كان عليها أن تركز عليه منذ اجتماعها الأول: ضمان الثبات والاستمرارية للدول العربية القائمة. الحق أقول لكم، إن كل من يدّعي أن هناك شرعية للدول القطرية القائمة تتجاوز حدود هذه الدول لا يعلم أو يعلم ويخادع. فلنر بعض ما حدث منذ ولادة الجامعة.

عند قيام الجامعة كان الملك المصري يحمل لقباً رسمياً هو «ملك مصر والسودان» هل نسي المصريون جميعاً والسودانيون كافة هذا المطلب؟ وبعد أن قامت الجامعة بسنوات قلائل ولدت المملكة الأردنية الهاشمية وأكثر من نصفها أرض فلسطينية. هل نسي أحد من الأردنيين أو الفلسطينيين تلك الفترة؟ وخلال عمل الجامعة العربية تحولت مصر وسوريا إلى الجمهورية العربية المتحدة (بفعل ضباط سوريين) وتعاملت الجامعة مع دولة واحدة بعد الدولتين، ثم حدث انفصال (بفعل ضباط سوريين) وعادت الدولتان. وخلال عمل الجامعة العربية ولد اتحاد عربي بين العراق والأردن بموجبه ما زال ملك الأردن - كما صرح الملك حسين رحمه الله قبل وفاته بشهور - الوريث الشرعي لرئاسة الاتحاد. وخلال عمل الجامعة حدث اتفاق على الوحدة بين العراق وسوريا ومصر لم يقدر له أن

يرى النور. وحدث اتفاق آخر بين سوريا ومصر وليبيا لم يعش بدوره. وحدثت وحدة اندماجية بين ليبيا وتونس اختفت بغتة، دون أن يعرف أحد، حتى هذه اللحظة، كيف ولدت وكيف ماتت. وتعاملت الجامعة العربية مع يمنين، ثم مع يمن واحد، ثم مع يمنين يخوضان حرباً أهلية، ثم مع يمن واحد. وهذا كله غير الوحدة السورية ـ العراقية التي انتهت نهايتها الدموية المعروفة، وغير مشاريع الوحدة بين ليبيا وعدد لا يحصى من الدول (تحول الآن إلى القارة الإفريقية كلها!)، ولا بد أن القارئ اللبيب يملك أمثلة أخرى عديدة.

نحن إذن بصدد جامعة لا تتعامل مع دول مستقرة ثابتة لا تحول ولا تزول، بل بصدد جامعة لكل عضو من أعضائها أجندته السرية الخاصة نحو باقي الأعضاء، وهي أجندة تختلف بنسبة مئة في المئة عن الأجندة القومية المعلنة.

لنعد إلى العراق والكويت. ذات ليلة ليلاء احتل العراق الكويت، وأعلن أنه أعاد الفرع إلى الأصل (والغريب أن جامعتنا الغريبة طردت مصر من عضويتها بعد الصلح الإسرائيلي المصري ولم تطرد العضو الذي أكل عضواً آخر!). ولم تكتف حكومة العراق بضم الكويت. بل أعلنت وقتها أن جميع دول الخليج «ظواهر هلامية» تفتقر إلى أبسط مقومات الدول. وما أزال اذكر تصريحاً

للسيد طارق عزيز قال فيه إن العراق سيكون أول من يرحب باحتلال السعودية لقطر، فلماذا تعارض السعودية احتلال العراق للكويت؟ وما أزال أذكر تصريحات عراقية مليئة بالأسى لأن الإمارات العربية المتحدة لا تتاخم العراق وبالتالي يتعذر ضمها كما ضُمت الكويت. (عجيب أمر الذاكرة التي تُبتلى بالنسيان، وهذه قضية أخرى من الأفضل تجنبها)! هل تغير شيء الآن بعد عشر سنوات من الاحتلال والتحرير؟ ألم يخرج علينا ابن الرئيس العراقي بخارطة تجعل الكويت جزءاً من العراق؟ ألم يصفق المجلس الوطني العراقي لهذه اللوحة الفنية الأخاذة؟ ألم يعلن الرئيس العراقي نفسه، في خطاب علني، إن احتلال الكويت كان «عملية تأديبية» حان الأوان لتكرارها؟ أستحلف كل عاقل بالله - وأفترض أن في قراء «الشرق الأوسط» عدداً من العقلاء - كيف يمكن تحقيق «مصالحة» بين العراق الذي ما يزال يتحرق إلى ضم الكويت.. وبين الكويت؟ أقول ما قاله شاعرنا العربي قبل قرون:

هذا كلام له خبيءٌ معناه: ليست لنا عقولُ!

وحتى لا يتصور أحد أن المشكلة العراقية - الكويتية حالة شاذة فردية أسارع فأقول إن «الحالة العراقية» توجد في كل مكان من الأمة العربية. بمعنى آخر، لا يوجد في أي ركن من أركان الأمة العربية إيمان راسخ ثابت أن الدول القائمة مقدسة لا تمس. وهنا

يتضح السر «الذي حارت البرية فيه»: معضلة الخلافات الحدودية العربية. عندما تختلف فرنسا وبريطانيا على حدود لا نجد في الخلاف ما يمس أياً من الكيانين القائمين. أما الخلافات العربية الحدودية فمعظمها، وأوشك أن أقول كلها، يلمس، بصفة أساسية، جوهر الكيان القائم. الذين يعتقدون أن الأمر يتعلق بآلية عربية قضائية يجهلون أنه لا توجد آلية يمكن أن تقنع دولة ما بشطب نفسها لكي تحل خلافها الحدودي. فلنعرض بعض الأمثلة الحدودية، دون أن نتحدث عن حق أو باطل، أو عن طرف مصيب وعن طرف مخطئ. كانت المطالب اليمنية (غير الرسمية وغير المعلنة) تشمل مقاطعتين كاملتين من المملكة العربية السعودية، هل يمكن أن نسمي مطالبة كهذه خلافاً حدودياً؟! وكانت المطالب القطرية، ذات يوم، تشمل ثلث إقليم البحرين، هل يمكن أن تقوم لدولة قائمة إذا فقدت ثلث إقليمها؟ حسناً! زالت هذه الخلافات، بفضل الله، ولعل زوالها النقطة المضيئة الوحيدة التي شهدها الواقع العربي خلال العقود الحزينة الأخيرة.

وماذا عن الخلافات «الحدودية» التي لا تزال قائمة؟ هل الخلاف بين العراق والكويت خلاف على ترسيم حدود أم أنه منصب على الكيان الكويتي ذاته؟ هل الخلاف بين المغرب والجزائر خلاف على بضعة كيلومترات أم على مناطق شاسعة هائلة يستطيع

من يسيطر عليها، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أن يضاعف موارده على حساب جاره؟ وهل للوجود السوري في لبنان أي علاقة بحدود؟ كل من يتأمل في إي خلاف «حدودي» عربي يجد أنه، في حقيقته، يتجاوز الحدود إلى وجود الكيان ذاته.

والخوف على الكيانات القائمة هو الذي يفسر لنا ما نراه من غرائب وعجائب على الساحة. العلاقات بين موريتانيا وإسرائيل لا علاقة لها بإستراتيجية عالمية ولكنها ذات صلة مباشرة ببحث موريتانيا عن ضمان لوجودها. وما ينطبق على موريتانيا ينطبق على كل دولة عربية أقامت علاقة مع إسرائيل. أما آن الأوان لكي نعترف أن عدداً من الدول العربية تعتبر جيرانها العرب أخطر على وجودها من إسرائيل؟ أما آن الأوان لكي نعترف أن علاقات هذه الدول مع إسرائيل تنصب في خانة البقاء والدفاع عن النفس لا الخيانة العظمى؟ ألا نعرف أن إسرائيل تعرف هذه الحقيقة؟ ومتى ندرك أنه بمجرد تغير هذه الأوضاع سوف تتغير نظرتنا إلى إسرائيل - ونظرة إسرائيل إلينا؟

بكل تواضع، أتوجه بنداء متواضع إلى سادتي الزعماء العرب: أيها القادة، انسوا، مؤقتاً، المصالحات بمختلف أنواعها وأشكالها. وانسوا، مؤقتاً، الأسواق العربية الموحدة والمناطق الحرة. وانسوا، مؤقتاً، حتى الانتفاضة الفلسطينية التي تمزق قلوبنا. ركزوا، سادتي

القادة، على صياغة ميثاق عربي جديد، تضمنه الجامعة، وتضمنه بعد الجامعة الأسرة الدولية كلها. ميثاق يقول: إن الدول العربية القائمة ـ بصرف النظر عن حجمها وكيفية قيامها ـ موجودة لتبقى، ولا يجوز المساس بها على أي نحو، ولا يجوز أن «تُضم» أو «تُوحد» إلا بإجراءات دستورية يعترف العالم كله بشرعيتها. أكدوا في الميثاق أنه لن يسمح بعد اليوم لدولة عربية أن تأكل جارتها، أو أن تضمها في وحدة «من صنع ضباط».

إذا وصلتم إلى هذا الميثاق، وكنتم صادقين في صياغته وتطبيقه، أمكن لبقية الأمور أن تعالج في حينها وتحل. أما إذا عجزتم عن وضع أصبعكم على مواطن الخلل الرئيسي في الجسم العربي، فسوف يكون شأنكم، سادتي القادة، شأن جماهيركم: تطلبون ما لا يمكن، وتتحدثون عما لا يكون! لقد علقت الجرس! اللهم فاشهد.

مملكة الشيراوي(*)

سـوف يمر وقت طويل، يا أبا سـيمـا، قـبل أن أصـدق، أصـدق حـقـاً، أني لن أراك، وانك لـن تراني.. سـوف يمر وقت طويـل، يا أبا سيما، قبل أن أصدق، أصدق حقاً، أنك مت..

هل تذكر بيتك الأثير:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس.. ولم يسمر بمكة سامر

هل تذكر كم مرة قلت لك ما قاله الشاعر القديم:

إذا ما أتى يـوم يفـرّق بيـنـنـا بموت فكـن أنت الـذي تتـأخـر

وكم مرة قلت لـي:

«بل كن أنت!»..

وهل تذكر كم مرة «ذاق كلانا ثكل صاحبه قدماً»؟

(*) مقالة نشـرت في جريدة الشرق الأوسط ، الخميس ١٤ ذو الحجة ١٤٢٤هـ - ٥ فبراير ٢٠٠٤ العدد ٩٢٠٠.

وشاء الأجل أن تتقدم أنت..

وان أتأخر أنا..

أن أكون الذي يتجرع كأس الثكل..

وثكل الصديق أقسى من أي ثكل آخر..

الصديق الذي كان بحجم الحياة..

يملأ الحياة بالحياة..

كنت تنفر، يا أبا سيما، من الموت..

كنت تنفر من حديث الموت..

وا عجباه!

لماذا، إذن، قلت لي قبل رحيلك بليال خمس أنك ستموت قرير العين بعد أن «دبرت شؤون البنات»؟!

ولماذا كنت، ليلتها، سعيدًا كما لم أرك سعيداً منذ سنوات؟!

سيكتب الكثيرون، يا أبا سيما، عنك الكثير.. سيكتبون عما قدمته لوطنك، ولخليجك، عبر نصف قرن من الخدمة الدائبة..

سيشيرون إلى بصماتك على مئة مشروع.. ومشروع.. وسيختلفون فيك بعد موتك..

كما اختلفوا فيك قبل موتك..

كأنك تآمرت مع الحياة على أن تبقى حياً بعد الموت..

تبقى ابتسامة تطير مع «طيران الخليج»..

وفكرة تحوم على مصاهر «ألبا»..

ونسمة تداعب «جسر الملك فهد»..

تبقى هنا.. وهنا.. وهنا!

وهناك.. وهناك.. وهناك!

هذا كله للناس كلهم، يا أبا سيما، يتفقون ويختلفون عليه.. وعليك..

أما أنا، يا أبا سيما، ففي أعماق روحي مملكة شاسعة.. شاسعة..

اسمها «مملكة الشيراوي»..

لا يدخلها غيرك.. وغيري..

مملكة تسكنها أيامنا معاً..

وذكرياتنا معاً..

وفي أيامنا، يا أبا سيما، الكثير من المعاناة..

والكثير الكثير من الضحك..

وفي ذكرياتنا، يا أبا سيما، الكثير من الحزن..

والكثير الكثير من الفرح..

عرفنا، معاً، نشوة النجاح..

عرفنا، معاً، مرارة الفشل..

عرفنا، معاً، روعة الصعود إلى القمة..

وعرفنا، معاً، صدمة الانحدار إلى السفح..

كان الناس، عندما يسخطون، يسخطون علينا معاً!

وعندما يرضون، يرضون علينا معاً!

وفي مملكة الشيراوي هناك الكثير من الذخائر.. والكنوز..

وهناك الكثير من العجائب.. والغرائب..

أو حسب تعبيرك الطريف: «عجايب غرايب!»

في «مملكة الشيراوي» ألف بيت للمتنبي!

يا الله!

هل يصدق أحد أن «الوزير الكيماوي» يحفظ للمتنبي، وحده، ألف بيت؟!

وفي «مملكة الشيراوي» مراصد سحرية تحدّق في ملكوت السماوات..

وفي «مملكة الشيراوي» أرى أبطال «الشطرنج»..

وأساطين «البروج».. وعمالقة «كرة القدم»..

وفي «مملكة الشيراوي» معلومات عن كل شيء.. عن كل شيء.. تقريباً.

عن أول هيكل عظمي كامل اكتشف في إفريقيا..

عن الخسوف الذي مضى..

والكسوف الذي سيجيء..

عن سيمفونيات بيتهوفن..

عن معركة «واترلو»..

عن الجمل العربي.. والحصان الروماني..

وفي «مملكة الشيراوي» فتن.. وخطوب.. وحروب مع أشخاص حقيقيين..

ومع طواحين الهواء..

سوف أبقى ما حييت، يا أبا سيما، أضرب في أعماق هذه المملكة..

أنتزع منها طرفة إذا احتجت إلى طرفة..

وجملة مفيدة.. وأخرى غير مفيدة..

ومعلومة أبهر بها الحاضرين..

وأشعر بالكثير من السعادة..

أما الحزن.. يا أبا سيما..

أما الحزن فقصة أخرى..

.. عندما ينفضُّ المعزون..

وتنتهي المراسم..

وتواصل الحياة سيرها المعتاد..

وأعود إلى قواعدي..

سوف ألمس ثقباً أسود.. عميق الغور..

ـ كثقوبك السوداء في الفضاء ـ

بقرب «مملكة الشيراوي»..

يذكرني أنك ذهبت..

ولن تعود..

ألم أطلب منك، ألف مرة،

أن تكون أنت الذي تتأخر؟!

سامحك الله!

سامحك الله!

رسالة عن يوسف الشيراوي(*)

أنت أشجع منّي يا محيي الدين. أنا الذي جبنت عن استقبال الجثمان العائد من لندن، وفررت قبل أن أراه بعيني أو أحمله بيدي. أنا الذي هربت من كل شيء، وأوصدت الباب، وبكيت. ثم تذرعت بالتفاصيل الصغيرة - هذه التفاصيل التي نجد فيها عزاءً من نوع غريب عندما يرحل حبيب. متى؟ وكيف؟ تألم؟ مات في الطريق؟ قال شيئاً قبل الموت؟ التفاصيل الخالية من الحياة والتي نتشبث بها لنعتصر منها شيئاً من الحياة التي ذهبت. ونحن نعلم، في قلب قلوبنا، أن هذه التفاصيل لا تهم. متى؟ في التاسعة أو العاشرة؟ - لا يهم. كيف؟ بالسكتة أو بالجلطة؟ وما هي الكلمات الأخيرة؟ هذه -بدورها، لا تهم- ولكننا نختفي في هذه التفاصيل. كما نحاول أن نهرب في المواعيد. وصول الجثمان. الصلاة. موعد الدفن. مجالس العزاء. الطقوس الرسمية. القناع الذي نلبسه أمام الأصدقاء والأعداء. المظهر الخارجي الذي يخفي كل مواجعنا، يخفي ضعفنا

(*) أرسلت هذه الرسالة للصديق الدكتور محيي الدين اللاذقاني تعقيباً على مقالة كتبها عن يوسف، ١٤٠٥هـ.

المخجل. وأنا، يا محيي الدين، هربت من استقبال الجثمان. كما هربت من مراسم الدفن. لا! لم أكن أتعمّد الفرار في المرة الثانية كما لم أتعمده في المرة الأولى. في المطار، عندما ضممت الأم والبنات، شعرت بأن قدميّ لا تطيقان البقاء في هذا المكان. المكان الذي استقبلني فيه ألف مرة. وودّعنى منه ألف مرة. كان هناك، دوماً، يبتسم ويضحك - عبر السنين الطويلة الطويلة. المكان الذي يعود إليه، الآن، في تابوت. لا! هذه مهمة للآخرين، الشجعان. أما أنا فمكاني في غرفتي الموصدة مع ألف وداع وألف استقبال. ولم أتعمد، يا أخي محيي الدين، الهرب في المرة الثانية. صحوت مبكراً مبكراً أنتظر وقت الهجرة إلى المقبرة - وعندما حان الوقت وجدت نفسي عاجزاً عن الحركة. لا أقصد أني شعرت بالتثاقل أو الكسل أو ما يلتبس بهما من أعراض - وجدت نفسي مشلولاً، مسمراً في المقعد. قلت للأصدقاء: "اذهبوا أنتم! وإذا سأل أحد عني.. حسناً إذا سأل أحد قولوا له لم يستطع أن يجيء". وفي الأيام التالية - حتى هذا اليوم - لم أزر القبر. ومنذ فترة مبكرة في حياتي والقبور لا تعني لي الكثير. لم أر قبر أمي التي ذهبت وأنا رضيع. ولا أعرف موقعه. ولا أعرف الآن موقع القبر الذي وضعت أبي فيه بيدي. ما لي وللقبور؟ الأرواح هناك في البرزخ مشغولة بما يشغلها. والذكرى هنا في الروح، كالأشباح الشقية التي ترفض أن تغادر

الأرض وترفض أن تدفن. وماذا أفعل أمام حجارة وفسيسفاء؟ أنت أشجع مني يا محيي الدين. أنا أصارع الأشباح الشقية التي تعبث في روحي. أناشدها أن تذهب - تتبع صاحبها الذي ذهب. والأشباح الماكرة تخادعني. تعرض أمامي المشاهد الجميلة التي عشناها معاً - تتحول الأشباح إلى مؤتمر كنا فيه. تتقلب الأشباح سهرة من سهرات "الصخب" التي تعرفها. تختفي الأشباح، قليلاً، ثم تعود محملة بالكتب. هل قرأت هذا الكتاب؟ هل سمعت عن هذا المؤلف؟ وأنا أراوغ الأشباح. أفرّ منها. أفرّ منها إلى مكتب مكدّس بالأوراق. مكتظ بالملفات - منبعج بالدراسات. العمل! هذا المخدّر القانوني الحلال! يلجأ إليه المكتئبون لينسوا كآبتهم. يرجع إليه القانطون لينسوا قنوطهم. ولكن ليوم العمل - مهما طال - نهاية. وعندما تختفي الأوراق والملفات والدراسات، تعود الأشباح وتصطف أمام المكتب. ويقول لي شبح طويل اللسان: "وغداً هناك عمل - وبعد غد - وبعد غد - وبعد غد". ويقفز شبح آخر فضولي ويقول: "ولكنك لن تراه غداً أو بعد غد أو بعد غد". لن تجده في انتظارك في المطار. لن تجده يضمّك قبل السفر. لن يهجم عليك بلا سابق إنذار كما كان يفعل. ولن يطالبك "بجمع الأصدقاء" كما كان يفعل. ولن تسمع تلك التعليقات. ولن تدخل معه في مهاترات ومشاجرات. ولن تضحك كما كنت تضحك. ولن يضحك كما كان يضحك. وماذا

أفعل، يا أخي محيي الدين بهذه الأشباح؟! الذكريات كلمة جميلة براقة خداعة - الأشباح هي الكلمة الدقيقة. الأشباح التي تتجسد ولا تستطيع أن تلمسها. الأشباح التي تحدث ولا تمسك. الأشباح التي تتشكل حتى تنسى وجوهها الحقيقة ثم تعود كما كانت.

حسناً، يا أخي محيي الدين، انظر ماذا فعلت! أنت بفسيفسائك وأعواد البخور المحترق، وتراب المحرق. انظر ماذا فعلت! سأتركك الآن، سأترك كل شيء، حتى المكتب المليء، وأوصد الباب - وأقضي مع الأشباح الشقية ما تبقى من نهاري الشقي!

أبا فيصل! وداعاً!(*)

أهرب من الناس جميعاً..

أخلو إلى غرفتي..

أغلق باب الغرفة..

ما لي وللناس؟

هم يعرفون الملك..

رجل الدولة المحنك..

مهندس التنمية الفذ..

يعرفون مواقفه.. وسياساته..

يعرفون منجزاته.. ومآثره..

وأعرف هذا كله..

(*) مقالة نشرت في جريدة الشرق الأوسط الأربعاء ٢٨ جمادي الثاني ١٤٢٦هـ - ٣ أغسطس ٢٠٠٥ العدد ٩٧٤٥.

ولكني أعرف فوقه.. ما لا يعرفون..

أعرف الإنسان المختفي وراء الملك..

الطيبة التي تسكن رجل الدولة المحنك..

الرقة في مهندس التنمية الفذ..

أعرف مئات المرضى الذين حملهم إلى العلاج..

أعرف عشرات الأرامل اللواتي حمل إليهن الأمل.. والمأوى

أعرف الأطفال الذين أعطاهم جزءاً من قلبه..

أعرف الرجل الذي كان يبتسم..

وقلبه يدمى من الداخل..

الذي كان يضحك للناس..

والهموم تمزق روحه..

وأذكر عبر السنين.. حياتي معه..

أواه! كم أذكر من حياتي معه!

أذكر كيف كان وجهه يضيء..

عندما أخبره أن قرية أضيئت بالكهرباء..

وكيف كان وجهه يتهلل..

عندما أقول له أن مصنعاً قد افتتح..

أذكر زيارته للمستشفيات..

وحديثه العذب الضاحك..

الذي ينسي ساكني الأسرّة البيضاء.. أسرّتهم.

أذكر النقود والثياب..

يرسلها في ظلام الليل..

إلى ذلك المستشفى في الطائف..

ويقول: "لا تخبروا وزير الصحة!"

أذكر كم كان كريماً معي!

أواه! كم كان كريماً معي!

أذكر كيف استبقاني حتى الصباح..

ذات ليلة في فاس..

لينسيني قلقي على طفلي الصغير.. فارس

الذي كان وقتها بعيداً عني..

تحت مبضع الجراح...

أذكر كيف ضحك من الأعماق..

مع ابني سهيل..

حين كان طفلا طويل اللسان..

قال له.. "إن شاء الله تكون أطيب من أبيك.."

ورد سهيل بثقة "إن شاء الله.."

وضحك.. وضحك..

وقال: "أنت صريح على الأقل!.."

أذكر نصيحته التي يمتزج فيها الجدّ بالمزح.

«هوّن على نفسك!

هل تريد أن تموت على المكتب؟!»

أذكر كلمته الرقيقة كلما لاحظني أتململ..

وكثيراً ما كنت أتململ:

«تذكّر! نحن في الخدمة معاً!

ولا نخرج إلا معاً!.. »

لا!

لن أقول الآن كل شيء..

سأطوي أضلعي على الذكريات..

وأعرف أنها ستبقى معي حتى أموت..

«نخرج من الخدمة معاً»؟!

ها أنت ذا.. ذهبت وتركتني!.

بعد معاناة ملحمية مع المرض...

وكنت تحتمل ما لا يحتمل..

وتصبر على ما لا يُصبر عليه..

حتى خفق السراج خفقته الأخيرة..

ونبض الفؤاد نبضته الأخيرة..

وأنا وحدي في وحشة الغرفة..

أذرف الدموع التي حبستها طويلاً

وأنا أراك تصارع المرض..

أطلق لها العنان..

وأتمتم:

أيها الرجل النادر!

أبا فيصل!

وداعاً...

والى الملتقى في الجنة..

إن شاء الله.



ماذا تستطيع أن تقول عن مدينة قضيت فيها جزءاً من حياتك، يكاد يعادل خُمسها، وشهدت مولد ابنتك، ومولد ثلاثة من أحفادك، وعرفت فيها شواهق السعادة، كما انحدرت فيها إلى وهاد الألم؟ ماذا تستطيع أن تقول عن مدينة عشت فيها طالباً يزاحم الناس في الحافلة لأنه لا يملك أجرة التاكسي، وعشت فيها سفيراً يتنقل في في أفخم السيارات المصفحة؟

ماذا تقول عن مدينة شهدت مخاض روايتك الأولى، وميلاد عدد من دواوينك وكتبك؟ ماذا تقول عن مدينة تترك فيها حين تغادرها عدداً من أصدق أصدقائك، بالإضافة إلى عدد لا يستهان به من «الآخرين»؟ لا يمكن للوداع أن يكون سهلاً، ولا يمكن لكلمات الوداع أن تكون خالية من العواطف المتناقضة، ولا يمكن لإحساسك أن يكون بريئاً من مزيج غير متناسق من اللهفة إلى البقاء، ومن الشوق إلى الرحيل.

ISBN 9

9789960541969
ORD:000109-2

موضوع الكتاب: المقالات العربية-السعودية

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com